42

أنيس منصور

قلبك يوجعني


مجلة الابتسامة
نسخة منسقة
مخفضة
بصفحات فردية
مجلة الابتسامة
www.ibtesama.com

أنيس منصور

قلبك يوجعني

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

شيء من الصدق!

مثل شعبي يقول: الديك الفصيح في البيضة يصيح..

وهذا المثل يتحدث عن الذكاء المبكر، والنضج المبكر.. أي أن الإنسان الذي سيصبح ذكيًا، لا بد أن يكون كذلك منذ الطفولة.. وهو ككل الأمثلة الشعبية، فيه شيء من الصدق، ولكن ليس صادقًا من أوله لآخره.. فكثير من الأطفال كانوا شديدي الذكاء، ولكن هذا الذكاء انطفأ بعد ذلك.. إما لأنهم أذكياء فقط في عيون آبائهم- وكل الأطفال عباقرة في عيون آبائهم- وإما لأن الظروف والتربية والتكوين قد أخمدت هذه الشعلة المبكرة، وإن كان هناك عدد كبير من العباقرة لم يظهر لهم أي ذكاء مبكر: العالم العظيم أينشتاين كان عاجزًا عن الكلام حتى السابعة من عمره، ولا كلمة، وكان رأسه كبيرًا.. وكان متفوقًا فقط في الهندسة والجبر، أما بقية العلوم فهو أصم أبكم.. ولكن في العشرين من عمره اكتشف نظرية النسبية.. وفي الستين مهد لاكتشاف القنبلة الذرية..

والمخترع إديسون كان طفلاً بليدًا غبيًا لا أمل فيه.. وقد اخترع المصباح الكهربي وأكثر من مائة اختراع.

ولكن هذا المثل الشعبي لا يزال يسعد الناس جميعًا.. فكل أب يريد أن يصدق هذا المثل.. فهو يستريح جدًا إلى أن يقال له إن ذكاء ابنك هو دليل على عبقريته عندما يكون رجلاً.. ويسعد أي أم طبعًا..

وقد اكتشف تجار السينما الأذكياء هذه الحكمة الشعبية فأكدوها للناس بألوان جميلة. ففي كل يوم يأتون بطفل صغير يظهر على الشاشة، طفل فصيح ذكي سليط اللسان.

وقد لاحظ هؤلاء التجار الأذكياء أن ظهور طفل بهذا الشكل يهز الصالة وأعلى السينما.. ويخنق شبابيك التذاكر.. ولا بد أنهم كسبوا مئات الملايين من وراء هذا، مثل الطفلة شيرلى تمبل والطفل ميكي والكلبة لاسي والقردة شيتا.. وهذه الحيوانات هي صورة من طفولة الإنسان.. وحتى «جيمس دين» عندما ظهر لم يكن إلا شابًا على أعتاب الرجولة.. وكان أقرب إلى الطفولة منه إلى الرجولة.. وسوف يظهر أطفال كثيرون يسعدون الآباء والأمهات ما دام الموسيقار موتسارت كان عبقريًا وهو طفل.. وعبقريًا وهو رجل.. كتكوتًا فصيحًا وديكًا فصيحًا.. وقد ظهر عندنا أطفال على الشاشة وصاحوا في البيضة، ولم ينجح منهم إلا القليل جدًا.. وليس العيب في البيض، ولكن العيب في الكلام والمواقف التي نعطيها للكتاكيت الصغيرة.. إن المخرجين يستخدمون الأطفال في إسالة دموع الأمهات فقط، فيظهر الطفل ليسأل دائمًا: وبابا حيرجع من السفر إمتى يا ماما؟!

ونحن نعلم جميعًا، والطفل طبعًا يعلم أن والده قد مات في الفيلم.. والحقيقة أن الأب لم يمت، وأن هذه الموهبة قد ولدت ميتة!

ومن الذي ليس سجينًا؟!

كأن من الضروري أن يدخل الفنان والمفكر السجن، باختياره أو رغم أنفه. ولذلك فالمفكر والفنان يختار العزلة.. يختار الابتعاد والانطواء وراء باب ضيق. وفي هذه العزلة تتولد المعاني.. وفي عالم الحيوان نجد الأنثى إذا حملت انفصلت تمامًا عن القطيع وتوارت عن العيون وراحت تلعق نفسها حتى لا تكون لها رائحة تستدرج الحيوانات المفترسة.

وفي الفلسفة وجدنا أن الرهبان في الصوامع أبدعوا الموسوعات والقواميس.

والشاعر الألماني ريلكه يقول إن الأفكار تهبط على الفنانين كما تهبط الأمطار من السحب.. إنه لا يعرف من أين جاءت هذه السحب ومن أي بخار ماء تجمعت قطراتها. ولماذا سقطت هنا أو هناك.

وفي الأساطير الألمانية أن كهف العبقرية لا يدخله إلا من يترك من نفسه وجسمه شيئًا. كأن يقطعوا يده أو رجله أو يفقئوا عينه- فهذا هو الثمن. والفنان والمفكر والعالم لا يترددون لحظة واحدة في دفع الثمن، فالمكافأة أعظم!

وفي ظلام السجون والوحدة والبرودة والغضب أبدع كثيرون من المفكرين والفنانين والساسة..

فـالأديب سرفـانـتس دخل السجن ثـلاثـة أشهر، بدأ فـيـهـا كـتـابـة روايته الرائعة «دون كيخوته».. وفولتير دخل سجن الباستيل وبدأ كتابة ملحمته الشعرية..

وهتلر سجل فلسفته في كتابه «كفاحي»..

ونهرو كتب «لمحات من تاريخ العالم» في سنوات السجن الطويلة..

والرحالة ماركو بولو أملى رحلاته على أحد النزلاء..

وأوسكار وايلد كتب «من الأعماق» وكان قد دخل السجن بتهمة الشذوذ الجنسي، فخرج من السجن محطمًا مفضوحًا.

وأستاذنا العقاد دخل السجن تسعة أشهر. يقول العقاد:

وكـنـت جـنـين الـسـجـن تـسـعـة أشـهـر
فهأنـذا فـي سـاحـة الخلـد أولـدُ
ففي كـل يـوم يـولـد المرء ذو الحجـى
وفـي كـل يـوم ذو الجهـالـة يلحـد
عـداتـي وصحبي لا اختـلاف عليهـم
سيعهدني كلٌّ كمـا كـان يعهدُ

والرئيس اليمني أحمد النعمان كان يحفظ شعر الشاعر اليمني الزبيري. ولما دخل السجن في مصر خرج شاعرًا ونظم قصيدة واحدة في هجاء الرئيس عبد الناصر.. ولأن القصيدة كانت بديعة تمنيت لو بقي في السجن حتى يجعلها ديوانًا!

فكلنا سجناء المكاتب والصوامع والمعامل والزنازين وإذا لم نجد سجنًا صنعناه لكي ننشد الحرية من وراء جدرانه وظلماته وبرودته!

كلام عن النوم الذي لا أعرفه!

على كثرة ما قرأت لم يحدث أن وضعت كتابًا تحت رأسي، لكي أنهض من الفراش وأقلب فيه. أما الإسكندر الأكبر فكان يضع (الإلياذة) التي نقحها أستاذه وأستاذنا الفيلسوف أرسطو في صندوق من الذهب استولى عليه من القصر الملكي في فارس، فلا أعرف كيف، إلا إذا كان الصندوق وسادة لرأس الإسكندر الأكبر..

وقد جربت أن أضع قلمًا وورقة تحت المخدة، فإذا فكرت سجلت ما جال بخاطري وهجرني النوم. وانتقلت إلى استخدام الأقلام المضيئة - أي التي إذا ضغطت عليها أضاءت الورق- ولم أعرف النوم. فقد انشغلت تمامًا بما سوف أكتبه. وطار النوم. فالنوم هو الآخر لا يحب شريكًا، فإما النوم وإما الأرق. وقد كنت عادلاً مع نفسي منذ اخترت الأرق الذي يبدو كالنوم والنوم الذي هو كالأرق!

وسألت الأستاذ العقاد فقال إنه من النادر أن يصحو بسبب فكرة مُلِحَّة. إنها تظل في دماغه في انتظار أن يأذن لها بالظهور!

وسألت الأستاذ توفيق الحكيم فقال: أين هذه الفكرة التي أجلس إليها؟! إن الأفكار كالمرأة.. الجميل فيها يؤرقك والدميم فيها يؤرقك

أيضًا، والأمر متروك لك، وهناك أفكار تعشقها وأفكار تتزوجها.. والأمر متروك لك.. ماذا تفعل مع العشيقة وماذا تفعل مع الزوجة.. هاها..

وسألت طه حسين فقال لي: أفكاري مهذبة، لا توقظني إلا إذا صحوت، ولا تهدهدني حتى أنام.. إنها أفكار صديقة أستدعيها وقد تجيء وقد لا تجيء، وهي عشرة طويلة، لا هي ملت ولا أنا مللت!

وهناك فرق، فهم يتحدثون عن النوم واليقظة، أي هناك فاصل واضح بين النوم وبين اليقظة، وهذا ما لا أعرفه، ففي أحيان كثيرة أتخيل أنني نمت، وأحيانًا أتخيل أنني لم أنم بعد، فإذا نهضت من الفراش لا أعرف بالضبط ماذا حدث، فأنا لا أنام وإنما أنا أطفو على سطح النوم، كأنني سباح ماهر، أو كأنني جثة هامدة!

لغز احتار فيه العلماء!

من الألغاز التي تواجه العلماء: لماذا تهاجر الطيور والأسماك من قارة إلى قارة؟!

فهناك هجرات معروفة الطرق والمواعيد للأسماك والطيور.. فهي تقطع ألوف الأميال في أيام.. وأحيانًا سنوات، لتضع بيضها، وبعد ذلك تموت.. وآراء العلماء مختلفة في تفسير هذه الظاهرة.. فهم يقولون إن السبب هو تيارات الهواء أو تيارات الماء. أو المجالات المغناطيسية.. أو الملوحة الموجودة في الهواء أو في الماء.. لكن لا أحد يعرف كيف تختار هذه الحيوانات طريقًا واحدًا ثابتًا لا تغيره. هذه البوصلة السحرية المركبة في رءوس هذه الحيوانات هي التي تهديها من قارة إلى قارة!!

إن الكثير من الأسماك تجتاز الأنهار، وتتجه إلى المحيط، وتقطع ألوف الأميال لتبيض بالقرب من الجزر ثم تموت.. ولا تخطئ هذا الطريق من ألوف السنين.. وكذلك الطيور المهاجرة..

وقد تقدم العلماء في أمريكا إلى هيئات الفضاء يطلبون مساعدتها في حل هذا اللغز.. فقد وضع هؤلاء العلماء راديو ترانزستور في

أعناق بعض السلاحف المائية.. ومطلوب من الكواكب الصناعية أن تلتقط إذاعات هذه الراديوهات وإرسالها إلى أجهزة استقبال على الأرض.. وبذلك يمكن معرفة مسيرة السلاحف وغيرها من الأسماك والطيور من قارة إلى قارة!

وقد تتساءل عن كل هذه الملايين التي تدفعها روسيا وأمريكا في إرسال سفن إلى الغلاف الخارجي من أجل أن تعرف كيف تهاجر الأسماك والطيور.. ولكن من يدري؟ ربما عرفنا سر تركيب الخلية.. ربما عرفنا أثر الجاذبية على الخلية.. ربما عرفنا سر تكاثر هذه الحيوانات.. ربما وفرنا عليها هذه الهجرة المهلكة وخلقنا لها البيئة المناسبة فيزداد عددها بالملايين.. وبذلك نساهم في إطعام الناس.. وربما عرفنا سر تحويل المادة إلى مادة أخرى.. كأن يتحول الماء إلى بترول، ويتحول الرمل إلى دقيق، ويتحول الظلط إلى قماش.. وبذلك يختفي الجوع والمرض من العالم.. وبذلك تصبح سفن الفضاء مثل سفينة نوح التي أنقذت الإنسان والحيوان من الطوفان.. وليست الإشعاعات الذرية إلا الطوفان الجديد!! إن الذين استكثروا عدة ألوف من الجنيهات التي طلبها خريستوف كولمبوس في رحلته المجنونة لم يدركوا خطورة الأرض الجديدة التي اكتشفها.. وكل سفن الفضاء ليست إلا سفن كولمبوس إلى عوالم جديدة!

نحن أبناء اليقظة آباء الأرق!

نحن مختلفون تمامًا، ولكن يجمعنا مع الأسف شيء واحد: أما نحن الأدباء دكنز وديماس الأب وكافكا وفرانكلين وكبلنج وبروست والممثل كاري جرانت والممثلة مارلين مونرو والعبقري نابليون والإمبراطورة كاترين الكبرى والرسام الكبير فان جوخ، طبعًا سوف تقول إننا بشر. صحيح. ولكن هناك الذي يجمعنا وينفرد بنا واحدًا واحدًا ويعذبنا ويجعل ليلنا نهارًا ونهارنا ليلاً. ونحن جميعًا نلهج بعبارة واحدة: الله يلعن الأرق!

لقد كان نابليون يستطيع أن ينام راكبًا حصانه. وأنا من الممكن أن أغفو لحظات في السيارة، فإذا حدث هذا، لا قدر الله، فلن أنام حتى الصباح. فكأنني في لحظات أنفقت كل رصيدي من النوم!

وكان الأديب كافكا يضرب دماغه في الحائط ظنًا منه أن شيئًا قد سد منافذ النوم، فهو يريد أن تسقط كل الأقنعة عن ينابيع النوم، ولا ينام.

وكان الأديب الإنجليزي دكنز يعد من واحد لألف ثم يعيدها من ألف إلى واحد لعله ينام، وكان ينام إذا قام بهذه الرياضة مرتين وثلاثًا!

أما الجميلة مارلين مونرو فهي لا تبذل جهدًا وإنما تكتفي بأن تبتلع أي عدد من المنومات.. ولما نصحها الأطباء بأن المنومات تفسد بشرتها الجميلة نصحها أطباء آخرون بأن تشرب كوبًا من اللبن بعد أي عدد من كئوس الخمر. وكانت مطيعة فهي تتعاطاها كلها معًا!

وقيل للممثل الكبير كاري جرانت أن يقوم ببعض الرياضة البوذية. واختار منها ما يناسبه كأن يجلس قبل النوم في السرير وتجيء القهوة والإفطار والصحف وهو في السرير ويتكلم في التليفون في انتظار أن يجيء النوم. وفجأة يسقط نائمًا فوق الطعام والشراب والصحف!

أما المخترع العظيم إديسون فهو لا يعرف إن كان قد نام في أي يوم.. فهو حالم بإنجاز اختراعات كثيرة. وكلها يخترعها أثناء النوم الذي يشبه اليقظة واليقظة التي هي مرحلة من مراحل النوم.

وكان أفضلنا جميعًا الفنان الكبير فان جوخ.. إنه يرسم أثناء النوم. وكل ما يخيفه أن يشرب الألوان خطأ فيموت.. ولذلك كان يضع اللوحة في مكان بعيد عن الألوان وينتقل بين الألوان واللوحة.. وإذا انهار تمامًا ففي المسافة بين اللوحة والفرش وأقلام الألوان.

لأنهم اختاروا الخلود

الفلوس والجنس والسلطة - قوى تحرك الناس ضد الناس أو مع الناس..

ولكن لا يستطيع الإنسان بها معًا أن يحقق شيئًا له قيمة إنسانية، فالذي يملك المال وينفقه على الجنس - ماذا حقق؟ والذي يملك السلطة من أجل الفلوس أو من أجل الجنس - ماذا قدم للناس؟

إن عددًا كبيرًا من الممتازين لا يرون ذلك، بل إن الذي يرونه صرفهم تمامًا عن هذه القوى القاهرة للقلب والعقل والمعدة.

وقد تندهش جدًّا لو قلت إن أعظم عقلية خلقها الله هي نيوتن. هذا العبقري لم يلمس امرأة حتى مات!

والمفكر الإنجليزي العظيم كارلايل ماتت زوجته عذراء!

وأعظم الفلاسفة في كل العصور الفيلسوف الألماني إيمانويل كَانْت، لا اقترب من امرأة ولا لمسها ولا تقدم لها ولا وعد واحدة بأي شيء.. وكذلك الأديب رسكن..

حتى الرجل السليط برنارد شو ظل بعيدًا حتى العشرين من عمره حين استدرجته امرأة عجوز. وبعدها كره هذا الكائن المعطل للإبداع والعبقرية : المرأة!

وكذلك الملك لويس السادس عشر، رغم ما قيل عنه، فإنه لم يمس امرأة واحدة..

والشاعر الإيطالى دانتي كان يحب فتاة فضَّلت عليه العمدة. ولم يلمس إلا يدها، وعندما حاول أن يقبلها وجد بها رائحة كريهة هي التي جعلها بعد ذلك رائحة جهنم في ملحمته الخالدة..

والتاريخ لا يدين للذين أحبوا ونجحوا بشيء وإنما يدين للمحرومين من ليلى ولبنى وعزة وجولييت وهلويزة!

أناس أكبر من العذاب!

في الأمثال: كل ذي عاهة جبار.. جبار أي في غاية القسوة أو في غاية العظمة.. إنه ينتقم مما أصابه. أو يحاول أن يتفوق على الألم والنقص.. أو أنه دون خلق الله..

وليس أقسى من أن يشعر الإنسان بأنه لقيط أو ابن غير شرعي ويضايقه أن يعرف الناس..

فكثير من العباقرة أبناء غير شرعيين..

الأديب الإيطالى بوكاتشيو والفنان العظيم دافنشي والمستشار الألماني فيلي برانت والأديب الفرنسي ديماس الابن والرسام الفرنسي سيزان والرحالة والمغامر البريطاني لورانس والفنانة صوفيا لورين والسياسي الأرجنتيني خوان بيرون والزعيم الألماني هتلر والأديب السويدي سترندبرج والموسيقار الألماني العظيم فاجنر..

صحيح لم يعيرهم أحد بأنهم كذلك.. فلا جريمة لهم وإنما هم ضحايا الأبوين. ولكن إحساس كل منهم بأنه غلطة.. عورة.. وصمة.. لذلك يحاول أن يكمل هذا النقص.. فبدلاً من أن يكون له أب وأم

يخترع للناس جميعًا أبوة وأمومة.. فيكون العظيم الذي هو أكبر من كل الذين لهم أب وأم وأسرة وأول وآخر.

أذكر أن أديبًا شكا للأستاذ العقاد أنهم يعيرونه بذلك.. فقال له العقاد: أنت أشجع من والديك.. وأشجع من كل هؤلاء الحاضرين.. فأنت الوحيد الذي على يقين من أنه لا يعرف له أبًا ولا أمًّا – وهم أيضًا لا يستطيع أي واحد منهم أن يقول لنا من هو أبوه.. هاها..

وكان الموسيقار العظيم فاجنر حريصًا على أن يجد فتاة يحبها وتكون لها نفس الصفات، لقيطة، ووجد واحدة فاتنة. ولكنه رفض أن يتزوجها قائلاً: إن إصلاح الغلط غلط آخر.. فلو كان لنا طفل سوف يعيره الناس بأن أبويه لقيطان حاولا أن يقدما طفلاً ليس لقيطًا. ولن يرحمه الناس..

والحقيقة غير ذلك؛ فلم يقل أحد للمستشار الألماني برانت: من هي أمك ومن هو أبوك.. ولا قال أحد للفنان دافنشي. ولكن الألم عميق في هذه النفوس العظيمة.. ولأنها عظيمة فالألم يتفجر فكرًا وفنًّا!

أو هكذا أتمنى

رائع ما يراه الشعراء.. سماوي ما يراه القديسون.. مروع ما يراه المعذبون.. وأنا مفتون بالجميع، والطبيعة؛ ولذلك ألتقط البذرة والورقة والثمرة واللمحة والنغمة، ثم يتفجر إحساسي بها جميعًا، امتنانًا لحكمة الحياة وسر الكون، فأتذوق وأستمتع وأتوجع وألعن وأرفض وأسخط وأثور على كل ما يقع في يدي وفي عيني ومن عيني أيضًا..

إنني أفعل ما تؤديه الكائنات الأخرى الصغيرة في تواضع شديد.. ما تفعله الفراشة والنحل، طائرات دائرات راجعات.. تقبل كل زهرة وتمتص وتفرز إلى الأبد.. وهي جميعًا -ونحن معها- تساهم في الكورس اللانهائي لملايين المخلوقات التي تلمس إرادة الله وتنحني لكل ما هو جميل، ولكل ما له معنى وهدف.. ولكن التواضع غريزة الحيوانات، ورذيلة الإنسان.. وليس من خصائص المفكر أو الفنان.. فالفنان يريد أن يفعل شيئًا.. أو يتوهم ذلك.. يريد أن يجعل لكل ما يفعله معنى، أو يتمنى ذلك..

فهو فلاح في كل أرض، وربان كل بحر، وطيار لكل جو، وشاهد على كل حكمة أرضية أو سماوية في كل عصر.. وهو بذلك يتحدى الطبيعة.. إنه يريد أن يصعد الجبال ويهبطها إلى الأبد، حتى لو لم يكن

لما يفعله أي هدف سوى التحدي – كما فعل البطل الإغريقي سيزيف. أو يقف في الماء العذب ولا يذوقه.. ويحاول ويفشل ولكن رغبته لا تنطفئ.. وهو يعلم أنه لا أمل، ولكنه يتحدى– كما فعل البطل الإغريقي تنتالوس.. أو يحرث الأرض ويبذرها بالملح، وهو يعلم أن الملح مقبرة البذور وهو يعلم أن الفاكهة لا تنبت من الملح.. يحاول أن يضيف مرارة الملح إلى حلاوة الفاكهة.. أن يضيف مرارة الواقع إلى حلاوة الوهم – منتهى الجنون أو منتهى الحكمة أيضًا.. ولكنه لا يتوقف كما فعل البطل الإغريقي عوليس.. أو ينتشي بجمال الحياة والطبيعة والفن وينسى كل شيء – كما فعل البطل الإغريقي أورفينوس..

إن الإنسان هو الذي إذا قامت القيامة راح يغرس شجرة، وهو يعلم أن عصفورًا واحدًا لن يتأرجح على أغصانها. وأن إنسانًا واحدًا لن يسترخي في ظلها، ولكنها إرادة التحدي.. هي التي تجعل الإنسان يزرع الحياة في وجه الموت.. يلوح بالأمل في أهوال اليأس.. والتحدي، هو الذي يجعله يخطف صفة الفلاح في يوم انسحبت فيه الصفات من الجميع.. ويجعله يضيف كلمة بعد أن وضعت نقطة نهاية السطر في نهاية كتاب الوجود. ولست إلى هذه الدرجة متفائلاً أو متشائمًا.. وإنما أنا إنسان مهموم بالآخرين وبنفسي.. وعندي آراء في أشياء، بعض الآراء في بعض الأشياء، بعض الوقت!

.. أو هكذا أتوهم!

فقط أريد أن أقدم لك الكون!

قال الإمام البوصيري في «البردة»:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة

مني إليك ولو أنصفت لم تلم

وقال شوقي في «نهج البردة»:

يا لائمي في هواه والهوى قدر

لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

ولا أعرف إن كانت ترجمتي لهذين البيتين قد نقلت البلاغة والرقة والجمال في اللغة العربية - يا عزيزتي سينا روصنم.. ولكن حاولت. وأنت محتاجة إلى عشرين عامًا إذا تعلمت العربية أن تدركي الجمال والأناقة والرقة في هذه المعاني. لا يهم. ولكن الذي يهم هو أنني بالأمس عملت بنصيحتك ونفذتها حرفيًا. أخذت حمامًا دافئًا وارتديت ملابس جديدة. وتعطرت وكنت قبلها قد نمت بعمق.. بالحبوب المنومة طبعًا. ولم أتناول عشائي حتى لا تنشغل المعدة عن النوم بالعصارة والهضم.. وإنما قررت أن أكون خالي المعدة صافي النفس مستعدًا لكل المهام. وجلست تحت الشجرة التي اخترتها أنت..

أما السماء فوقي فكانت بعيدة عن النظر إليها.. إنها مثل مناديل رمادية وسوداء تتداخل بعضها في بعض.. كأنها الأعلام الرسمية لمملكة الموت.. وأما الغابة التي أمامي فهي الأخرى قد لفها الضباب كأنه يحاول أن يضمها في أكياس من البلاستيك، وينقلها بعيدًا إلى حيث تراها عيون أكثر يقظة.. أما الطيور فلم أجد سوى كلمات تبحث عن جملة وجملة تبحث عن مقال أو قصيدة عنوانها: أنت ولا أحد سواك هنا وهناك..

تعبت والله تعبت. فأنا أحاول المستحيل.. والمستحيل أن أجعل الدنيا من حولي تتكلم العربية نثرًا وشعرًا، وأقوم بترجمة ذلك إلى الإيطالية.. ولو كنت أنت هنا ما احتجت إلى لغة.. فنحن معًا نرى الشيء الواحد الجميل ونقول الله، في وقت واحد.. ونكون ضمن الكورس الغنائي الإلهي بين السماء والأرض..

عزيزتي سينا.. إن لم أقل شيئًا جميلاً فقد حاولت.. وإذا كنت حاولت ولم أفلح فسوف أحاول مرة أخرى، وكل ما أحتاجه هو كثير من الصبر.. صبرك على من يريد أن يقدم لك الكون في صفحة واحدة!

يا ليتني كنت درويشًا!

لست درويشًا ولا كنت، وإنما تلميذ يريد أن يعرف، فكثيرًا ما ترددت على الكنائس والأديرة والمعابد اليهودية. ومن يراني يظن أنني مسيحي متعصب أو يهودي متشدد ومن يراني خارجًا من المسجد إلى جمعية الإخوان المسلمين، يؤكد أنني قد تدروشت، مع أنني كنت ولا زلت طالب علم.. أريد أن أفهم. وما أكثر ما أردت وما أقل ما فهمت. ولا زلت أطلب. أعانني الله على جهلي وأراحني الله بالقليل من الكثير جدًا الذي لا أعرفه ولا أعرف كيف أعرف. وإذا عرفت أن أفهم.. وإذا فهمت أن أقتنع. وإذا اقتنعت أن أسعد بذلك!

لقد علمنا أستاذنا سقراط: اعرف نفسك بنفسك. فأن أعرف نفسي هذا صعب جدًا.. أي لا بد أن أنظر في مرآتي لأرى وجهي. ولابد من مرآة أخرى لكي أرى قفاي. ولابد من مرايا كثيرة جدًا لأعرف ما هذا الذي هو أنا.. جسميًا ونفسيًا وعقليًا واجتماعيًا..

ثم ما هذا الذي هو أنا إذا كنت راضيًا.. وما هذا الذي هو أنا لو كنت ساخطًا.. ثم ما هذه المرايا الأخرى، مرايا الصديق والعدو والمحب والحاقد والناجح والفاشل.. فليس من هذه المرايا واحدة صافية نقية.. ولا أنا في كل وقت كنت صافيًا نقيًا.. فإذا كانت كل

هذه المرايا وكنت أتقلب بينها فما الصورة النهائية؟ وهل هذه الصورة هي أنا وأنت وهم ونحن، وكلنا، وعالمنا ودنيانا؟!

أبو الحركة التنويرية في مصر رفاعة الطهطاوي عندما ذهب إلى باريس أدهشه جدًا أن رأى مرايا كثيرة كبيرة في المقاهي.. وكان يظن أن المقاهي ضخمة.. كأنها ميادين، ففيها أناس كثيرون. ولكن عندما اقترب اكتشف أن المرايا تعكس الحركة في الشارع.. وفي لحظة عبقرية وضع يده إلى قرب المرآة.. ثم ألصقها.. ولاحظ أن لون بشرته تمامًا كاللون الذي رآه في المرآة.. فهي ليست كالمرايا في مصر.. التي تجعل الصورة شاحبة لأن المرايا في مصر مقعرة أو محدبة وانعكاس الأشياء فيها ليس دقيقًا!

ففي هذه اللحظة أدرك الطهطاوي أنها المرايا.. إذا كانت صافية كانت الوجوه والأيدي كذلك.. وإذا كانت مقعرة أو محدبة كان الانبعاج والالتواء والبعد عن الحقيقة.

وهذا يفقد معرفتنا بأنفسنا، لأننا نراها في مرايا من كل لون ونوع وحجم.. وكان إصراري ولا يزال أن أجلو المرايا لعلي أفهم أكثر وأوضح..

ويقيني أنني لم أفلح في كل ذلك إلا قليلاً!

هذا هو الحب الختامي!

عزيزتي الإيطالية سينا روصنم..

والله لم أفعل شيئًا إلا أن أقوم بمعجزة من حين إلى حين، فليس أسهل من تحويل المادة إلى طاقة. أشعلي عودًا من الكبريت.. ولكن المعجزة هي أن تتحول الطاقة إلى مادة. وهذا ما فعلت وما أفعل.. فأجدني قد حولت دنياي إلى شيء تافه.. إلى كرة صغيرة أركلها بقدمي.. وهذه هي نهاية كل شيء.. فكل الذي رأيت وسمعت وتخيلت وتوهمت وكسبت واكتسبت لم يعد شيئًا. لم أعد أجد شيئًا له قيمة.. ما هذا الذي شغلني؟ كلام فارغ. ما هذا الذي ترسب في دماغي؟ سخافات.. ما الذي أقول؟ ما الذي أكتبه؟ ما الذي أقرأ؟ كل هذا دخان.. بخار.. هباء.. تفاهة.. هيافة.. عدم.. فلا أخذني ولا أضفت ولا تبقى ولن يبقى أي شيء من أي شيء..

أنظر إلى المكتب أمامي وورائي وفي يدي كلام في كلام.. أصوات في أصداء.. شعر.. نثر.. هباء هراء..

والله العظيم لا أكذب ولا أبالغ ولا أطلب دهشة ولا شفقة. ولما سألوا العالم الفيزيائي الكبير أينشتين ما الذي علمه وتعلمه وتركه وراءه قال: إنني أضفت طابع بريد إلى مسلة فرعونية.

ولما سألوا العالم الفيزيائي الأعظم نيوتن قال إنه يلعب بأحجار ملونة على شاطئ محيط الحقيقة!

أعرف أنك تنتظرين مني أن أحدثك عن الحب – فهذا هو الذي يهم أكثر.. يهمك أكثر. ولا حتى هذا.. فأنا أشبه بالبوصلة أصابتني هزة.. رجفة عندما اقتربت منك.. أو عندما أذكرك.. أفكر فيك.. وأرثي لحالك.. أما حالى فلا أرثي له.. ولن يرثي له أحد.. فالشيء الوحيد المؤكد في حياتي أنني لا أهم أحدًا. ولست مصدر لا حزن ولا سعادة.. وإن كان فلحظات. والباقي ذكرى ولأنها ذكرى فهي قصيرة العمر. صدقيني إنني لا أحاول أن أحول الأرقام إلى أصفار. فنحن أصفار.. ألف صفر.. مليون صفر. ونحن من حين إلى حين نضع وراء الأصفار أرقامًا.. قبلها، بعدها.. ونصدق ذلك.

والعبارة التي قالها أستاذنا الفيلسوف العظيم شوبنهور صحيحة. قال: إذا أردت أن تجعل للدنيا قيمة، فاجعل لنفسك قيمة. أما قيمتي فقد حكيت لك عنها. وهي كما ترين تفاعل كيماوي يومي ومن سنوات.. صفر + صفر = صفرًا.. صفر – صفر= صفرًا أيضًا.

هل استرحت هل أرحت؟ والجواب: لا.. فأنا لم أنهل من بحار الحكمة. وإنما غرقت فيها. وما دمت قد غرقت فيستوي أنني عرفت أو أنني لم أعرف.. ويستوي إذا كان الذي عرفته فيه بحرًا من الحكمة أو من التفاهة أو العدم!

أن تكون مفهوما: هذه غلطة!

جمعت محاضراتي في الفلسفة في 17 عامًا، وفكرت أن أنشرها في كتاب، ولكن وجدتها لا تصلح، فهي تعطيك انطباعًا بأنها حكايات ونوادر ونكت، مع أنها في صميم الفلسفة، ولكني حاولت وأحاول دائمًا أن أكون مفهومًا ولذلك أستعين بكل وسائل التوضيح، وكانت محاضراتي تلقى رواجًا عند طلبة الكليات المختلفة فهي مسلية – هي فلسفة أيضًا!

وكان أستاذنا سقراط قد جعل قضاياه الفلسفية سهلة، وكان تلميذه أفلاطون يسجلها على شكل محاورات ممتعة، وقيل إن سقراط قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، وهذا ما فعله الفيلسوف الوجودي الفرنسي سارتر، عندما أنزل الفلسفة الوجودية الألمانية من السماء إلى الأرض، فجعلها قصصًا وروايات ومسرحيات ومقالات ودراسات بديعة.

وقفزت إلى ذهني عبارة قالها المفكر الأمريكي ول ديورانت عندما تحدث عن الشاعر الفارسي سعدي قال: إنه فيلسوف حقًا ولكن أفسدته العبارة البسيطة.. أي أنه شرح وشرح حتى خيل للقارئ أنه نوع من الأدب الفكاهي، وبعض المفكرين يرون أن التبسيط والتبسط

مفسدة – أي تبسيط العبارة والتبسط في التعامل مع الناس يفقدك الاحترام وعظيم التقدير.. رأي!

وأنا لا أشكو، فقد اخترت أن أكون سهلاً مفهومًا مهما اتهمني الناس بأنني بعيد عن الفلسفة – أي عن عباراتها المعقدة وتراكيبها الصعبة، ولي تجربة، فعندما امتدح الأستاذ العقاد مقالاً لي عن «معنى الفن عند تولستوي» قال لي: أعجبني أسلوب المقال، وكان يومًا أسود، إذن لابد أن أسلوبي يشبه أسلوب العقاد وإلا ما أعجبه!

وأعدت مقالي أكثر من عشرين مرة حتى جردته من كل التراكيب الفلسفية.. وكانت هي بداية طريقي الوعر من أجل السهولة والتبسيط أيضًا، ولذلك سوف أنشر محاضراتي في الفلسفة، فإن لم تكن فلسفة خالصة، فهي محاولة لذلك!

.. لمن يعنيهم الأمر!

لا بد أن يقف شعر رأسك وأعصابك ورموش عينيك إذا كنت كاتبًا، فقصة المفكر الإنجليزي كارليل مروعة، فقد ألف كتابًا عن الثورة الفرنسية وبعث به إلى صديقه الفيلسوف العظيم إستيورت مل ليقرأه ويعرف رأيه فيه، وجاءت الخادمة وظنت أن هذا الكوم من الورق كان على الفيلسوف أن يلقيه في الزبالة.. ولكنه نسي. فوضعته في المدفأة واحترق تمامًا.. صف شعورك إذا كان هذا كتابك وأمضيت عشر سنوات تكتب وتراجع حتى استقر على هذه الصورة الجميلة.

أما كارليل فجلس في هدوء إنجليزي عجيب وأعاد الكتابة من الذاكرة كأن شيئًا لم يحدث. عجبي!

مررت أنا بتجربة مماثلة. ولكن ليست بهذا الإعجاز في الأداء. فكتابي «حول العالم في 200 يوم» حصل على جائزة الدولة في أدب الرحلات، وصدرت طبعته الأولى سنة 1963. واليوم تظهر طبعته الأربعون. وأنا لا أقرأ كتبي. ولكن لسبب ما أمسكت الكتاب ورحت أقلب في صفحاته. ولم يعجبني، فقد لاحظت أن العبارة انطباعية.. فيها كثير من الدهشة والاستغراق مع تعبيرات مبتكرة وحوادث مثيرة. وكان من الممكن أن أكتبه أحسن وأجمل..

وقررت أن أعيد كتابته. فجلست أسبوعين أعيد صياغته 700 صفحة. وبعدها لم أقرأ الكتاب ولا أستطيع. وتركت الكتاب يعيش بجهوده الذاتية فكان أكثر الكتب العربية انتشارًا بشهادة اليونسكو- ولا يزال..

وفكرت في أن أنشر الأحاديث التي أجريتها مع الرئيس السادات وكانت ستين حديثًا طويلاً. وعندما قلبت فيها صادفني صعوبة منهجية، فلابد أن أقدم لها، وأتحدث عن آثارها في مصر وإسرائيل. ووجدتني أحتاج إلى شهور طويلة من الدراسة والمراجعة. وانشغلت بكتب أخرى وتركت هذه المهمة للمؤرخين - إن كان الأمر يعنيهم!

قبل النهاية بساعات كتبوا!

بعد موتنا ما قيمة أن يقال أي كلام مدحًا أو قدحًا.. إن الأمر لا يهم. فنحن لم نعد هنا نرى ونسمع ونقول. وقديمًا قيل: لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها، أي بعد موتها! لا يضيرها أن تسلخها أو أن تضع أكاليل الغار حول عنقها!

ولكن يبدو أن هذا ليس صحيحًا، فكثير من العظماء مشغولون بما سوف يحدث لهم.. وكثير منهم يجهدون رءوسهم ليكتبوا أو يرسموا حتى آخر نفس..

الشاعر الإيطالي دانتي مات بعد ساعات من إكمال ملحمته الخالدة «الكوميديا الإلهية» والشاعر الإيطالي بتراركه مات ووجهه على ورقة فيها آخر قصائده..

أستاذنا العقاد مات وبالقرب منه مشروع تفسير جديد لسورة (النور)..

وتوفيق الحكيم أعطاني نسخة من مسرحية بالفرنسية اسمها «فاوست» وهي تكملة للمسرحية العظيمة للشاعر الألماني جوته. وفي مقدمة هذه المسرحية أن الذي ألفها حفيد مصري غير شرعي

للشاعر الألماني. وكان في نيتي أن أترجمها لولا أنني وجدتها إلحادًا صارخًا. وكتب باحث فرنسي يقول إن هذه المسرحية من تأليف توفيق الحكيم.. ولما أعطاني الحكيم هذه المسرحية قال لي: نسخة لك ونسخة لزوج ابنتي والنسخة الثالثة بعثت بها لصديق في فرنسا..

ود. عبد الرحمن بدوي أول فيلسوف مصري وقع في الشارع في باريس ونقلوه إلى المستشفى فاقد الذاكرة ولم يعرفوا من هو حتى اهتديت إليه ونقلناه إلى القاهرة ومات، وكانت مصر قد رشحته لجائزة نوبل في الآداب.. ووجدنا تحت رأسه في باريس بقايا قاموس يوناني لاتيني ألماني فرنسي وعلى الهامش هذه العبارة: اتصلوا بأنيس منصور ففي استطاعته أن يكمله!

والشاعر الرقيق كامل الشناوي الذي له شعر جميل ونثر أجمل، كان مقلاً في الشعر بقدر إسرافه في الطعام والتدخين.. ووجدنا تحت رأسه ورقة بيضاء عنوانها: لا شيء.. وفي نهاية الصفحة إمضاؤه. لقد أراد أن يقول لا شيء، فقال إنه لم يسكت ولم يستسلم فقد حاول أن يسخر من كل شيء.. ففعل!

الذين أكلوا حتى الموت!

لم تكن (العجائن) معروفة في أوروبا حتى نقلها من الصين الرحالة الإيطالى ماركو بولو في القرن الرابع عشر. وظهرت أشكالها الجديدة: المكرونة الإسباجتي وفيوتشينو وتالياتلي وفيرتشيلي ورفيولي وغيرها. وقال إنه نقلها عن وليمة للإمبراطور الذي كان يتولى بنفسه صنع هذه العجائن لأصدقائه..

والزعيم المصري أحمد عرابي نفاه الإنجليز إلى جزيرة سيلان (سريلانكا).. ونقل إليهم الجلباب والطاقية والطربوش والكنافة والقطايف والكعك.. وعندما ذهبت إلى جزيرة سيلان أبحث في العشرين عامًا التي عاشها عرابي باشا والشاعر البارودي وغيرهما، وجدت أنه كان متعدد الزوجات، وأنه كان يركب حصانًا يذهب به إلى صلاة الجمعة، وأنه هو الذي علم الطهاة: الملوخية والبامية وصناعة كل هذه العجائن..

ولم يحدث في التاريخ أن أحدًا ألف كتابًا عن الطهي هو وزوجته. ولكن المستشار الألماني هلموت كول كان له كتاب واسع الانتشار تحدث فيه عن الأكلات الألمانية والأكلات الشهيرة والتي يحبها أيضًا، وكان نموذجًا للرجل الذي يحب الأكل كثيرًا. ويرى أنه لا توجد

وسيلة لتهدئة الأعصاب إلا بالأكل، ولم يجد حرجًا في وزنه الذي يتزايد وفي جيوبه التي امتلات بالشيكولاتة. وكان إذا انتقده أحد قال: إن الشعب الألماني لم ينتخبني بالكيلو.. بحيث يجب ألا يزيد وزني عن يوم انتخبني، وكان يضع يده في جيوبه ويستخرج ما يعجبه من الشيكولاتة. ولا يجد ضرورة لأن يقدمها لأحد.. فلا بد أن يأكلها كلها وهي لا تزيد في اليوم الواحد عن عشرين قطعة!

ويقال إن الخديو إسماعيل -أحد ملوك مصر- مات لأنه أكل كثيرًا.. لقد أحب الطعام حتى الموت!

وقد ابتكر نوعًا من الصلصات كان يفاخر بها وهي التي أودت بحياته.

المسرح مدرسة بلا مدرس

لا يعجبني منظر المدرس ومعه عدد من الطلبة الصغار يدخلون أحد المسارح.. إن وجود المدرس يجعل هذه المسرحية نوعًا من الواجب.. نوعًا من الدرس.. يجعل المتعة إجبارية ويجعل الهدوء في أثناء التمثيل أمرًا يقتضيه وجود المدرس.. ويجعل التصفيق قاعدة من قواعد السلوك.. ويتحول المسرح والمسرحية إلى «حصة» من الحصص، وهذا يفسد المتعة التي نريدها لكل من يتفرج على المسرح، وقد جربنا جميعًا ونحن صغار الذهاب إلى حديقة الحيوان مع مدرسينا.. وجربنا أن نلعب بحساب أيضًا.. وكل هذا يحد من لذتنا ومن متعتنا..

صحيح أنَّ الطالب الصغير في حاجة إلى من يرشده وإلى من يقول له: هكذا يجب أنْ تجلس، وأن تستمع وأن تخفض صوتك، وألاَّ تتكلم بصوت مرتفع.. إلخ.

ولكن من المؤكد أننا نريد من الطالب الصغير أن يدخل هذه التجربة وحده.. أن يذهب إلى المسرح.. أن يعرف كيف يكون حجز التذاكر، وكيف تكون الطوابير وكيف يجلس في مكانه.. ونريد أن يتعلم من الكبار أدب الصمت وأدب التصفيق.. وأن يجعل من الكبار

نموذجًا طيبًا له.. وأن يفعل ذلك كله بلا خوف من أحد وبلا ضغط من أحد، وأن تتحقق له اللذة الفنية والمتعة العقلية بحرية كاملة.

أنا أفضل جمهور المسرح على جمهور السينما، لأن جمهور المسرح هو جمهور «الكلمة» وليس جمهور «الكاميرا» وجمهور المسرح هو الجمهور القادر على أن يشترك في التمثيل وذلك عن طريق «الاندماج» في «الجو» المسرحي وفي الحوادث.. وذلك بأن يتحول إلى «طرف» في قضية.. وإلى حكم في مباراة من نوع غريب، هذه المباراة هو فيها الكرة واللاعب والحكم والشبكة..

إنني أتمنى أن أرى مع بداية الموسم المسرحي تلامذة صغارًا يتفرجون وحدهم، ويتعلمون بلذة ومتعة.. إن المسرح مكان للراحة والدراسة والعلاج والمناقشة اللذيذة بلا عصا في يد مدرس.. وبلا تكشيرة على وجهه!

بابا نويل عربي

مرة أخرى أنادي بأن تكون لنا شخصية عربية مثل شخصية بابا نويل تعبر عن أعيادنا الشرقية والإسلامية. ومنذ سنوات اقترحت أن تكون لنا شخصية «عم رمضان» وأن يكون عم رمضان ابن بلد ظريفًا لطيفًا رشيقًا.. وأن يرتدي الجبة والقفطان والعمامة، وأن يمسك في يده طبلة المسحراتي، وأن يمسك عصا يضرب بها الأطفال الصغار أو الرجال الذين يضبطهم مفطرين في رمضان.. أو تراه وهو يمسك خروف عيد الأضحى. ولا شك أن شخصية عم رمضان ستكون مادة علمية للدعاية.. فسوف تكون ملابسه مصنوعة من الكنافة، أو قمر الدين، وسوف تكون عصاه في لون البصل الأخضر أو الفجل، وسوف يتشاجر عم رمضان مع المسحراتية الذين يدقون الطبول والناس لم يناموا بعد. ومن الممكن أن يكون عم رمضان هو عم صيام.. أو يكون اسمه «أبا الصيام»، وأن يكون «أبو صيام» هو لسان حال الناس أو حال التعقل والاعتدال والاقتصاد في الأكل والشرب والنفقات.. فهو يطرد الذين يسرفون في الطعام ويسرفون في الإنفاق.. وهو الذي يطارد الزوجات اللائي يبعن حليهن من أجل كعك العيد، أو خروف العيد.

وربما كان من الأنسب أن يكون له اسم آخر هو «عم عيد».. وبذلك يناسب عيد الأضحى وعيد الفطر والكريسماس ورأس السنة أيضًا.. ويكون له الوجه نفسه ولكن تتغير أزياؤه في المناسبات.. فهو يضع اللحية والطرطور و«الشوال» على كتفه في الكريسماس ورأس السنة.. وينزع الطرطور واللحية والشوال في الأعياد الإسلامية..

ولكن المهم أن يكون «عم عيد» هذا هو البديل لبابا نويل.. وهو ليس خصمًا لبابا نويل، وإنما صديق له.. ومواطن عربي متسامح متفائل.. يطلب من كل الناس على اختلاف ألوانهم وأديانهم أن يتمسكوا بالقيم الأخلاقية وأن يتحابوا وأن يعتدلوا شهرًا في كل سنة.

وكل سنة وأنتم طيبون!

شعرة بيضاء وشعرة سوداء ثم الخلع

■ وإنما أردت أن أعرف بالضبط ما الذي يعجب ولا يعجب القراء، اخترت هذه المرة كاتبًا سياسيًا في «الشرق الأوسط»، وأقبلت على تعليقات القراء.. فبعض القراء ينتهز هذه الفرصة المتاحة ليقول: وقد يكون كلامه بعيدًا عن الكاتب، وقراء يستنكرون ما قرأوا، ويرونه أقل مما يجب.. أو أكثر مما يجب أن يقال، أو لا يصح أن يقال.. وقراء مثل لاعبي كرة القدم يشوطون خارج الملعب.. وهم يتمنون أن يكون الكاتب هو الكرة!

فما الذي يحدث؟ الذي يحدث هو أن القارئ يريد أن يكون كاتبًا أو أنه لا يرى أن الكاتب يستحق أن يكون كاتبًا، والدنيا قد انقلبت؛ القارئ صار كاتبًا، والكاتب لا يستحق أن يكون كاتبًا، وإنما هي حظوظ..

أما الذي يجعل الكاتب يشتعل غيظًا، ويدخن قرفًا، ويلعن اليوم الذي ولد فيه.. فهو عندما يقول القارئ: وما فائدة هذا الكلام.. إحنا في إيه وانت في إيه.. ومعنى ذلك أن الكاتب لم يعد كاتبًا، لأنه أفلت من براثن السياسة بعض الوقت، لأن الكاتب ليس سياسيًا طول الوقت. فليس كذلك مع زوجته وأولاده والناس، إنه ضاق بالسياسة

فهو يريد أن يكون على راحته، لأن القارئ هو أيضًا ليس سياسيًا طول الوقت فهو يأكل ويشرب ويتزوج ويحب، ولا يمكن أن يكون هذا كله نشاطًا سياسيًا استراتيجيًا أو تكتيكيًا!

قرأت تعليقًا على مقال لكاتب سياسي كبير ورصين، القارئ يقول: يا أخي وجعت دماغنا ملعون أبو.. وأبو.. وأم.. بالذمة ما الذي يفعله الكاتب الذي عصر دماغه ثم ضربها في الحائط لعل شيئًا مفيدًا ينزف مع دمه فيرضي القارئ، ولكن القارئ لا يرضى؟

ويقال إن رجلاً تزوج امرأتين، واحدة تصغره بعشرين عامًا وواحدة تكبره بعشرين عامًا، فإذا ذهب للصغيرة راحت تلتقط الشعر الأبيض من رأسه حتى لا يبدو كبيرًا.. فإذا ذهب للكبيرة راحت تلتقط الشعر الأسود حتى لا يبدو صغيرًا، وما زالت هذه تلتقط وتلك تلتقط، حتى أصبح رأس الرجل عاريًا من الشعر فتنافست الاثنتان في خلعه.. وخلعتاه.

ونحن الكتاب نقاوم الخلع ونرفض الحرية التي لا يكون فيها الكاتب ملعونًا من القراء مكروهًا من الكتاب!

عذاب آدم!

بعد خطيئة آدم وحواء كانت عقوبتهما أولاً: أن ينزلا من السماء إلى الأرض.. وثانيًا: أن يعمل آدم وتلد حواء!!

فآدم يموت إذا لم يعمل، ويموت إذا عمل..

وكل حياته هي عمل، وبحث عن فرص للعمل، وتنظيم للعمل، وبيع لنتائج العمل، ومحاربة لمن يستغل عمله، وراحة من العمل. وإذا عمل آدم تعذب، وإذا لم يعمل فإنه يذبل ويختنق ويموت، فآدم يشكو من الحياة ومتاعب الحياة، ولكنه لا يفكر في أن يقف عن التنفس، ولا يتوقف عن صنع الأدوات التي يعيش بها.

وعذاب حواء هو أن تحمل وتلد وترضع أطفالها وترعاهم. وقبل الحمل والولادة عذاب آخر، هو اختيار الرجل الذي سيصبح أبًا لأطفالها، وحاميًا وراعيًا لهذه الأسرة الصغيرة، ولم تعرف المرأة معنى «اختيار الرجل» إلا أخيرًا جدًا.. في حين عرفت الحيوانات والحشرات معنى الاختيار بالغريزة.. فالنحلة تختار أقوى ذكور الخلية ليكون أبًا للألوف من صغار النحل.. والحيوانات عرفت أنسب الذكور..

أما المرأة فلأنها حيوان اجتماعي، ولأن الأسرة هي خلية المجتمع، فقد كانت الأسرة هي التي تفرض عليها الرجل المناسب. فالأسرة هي التي تملك القدرة على الاختيار. ولكن لما تعلمت المرأة عرفت وآمنت بأن أساس الحياة هو الحرية.. هو الاختيار.. فاختارت المرأة الرجل الذي تستريح إلى حبه وإلى عنايته. وتخبطت المرأة مئات السنين في اختيار الأب المناسب لأولادها.. وعلى الرغم من أن المرأة تتعذب كثيرًا في الحمل والولادة، لأن أعظم أعمالها هو أن تأتي بمخلوق جديد.. فإن هذا هو العمل الوحيد الذي تنفرد به المرأة.. ولا يستطيع الرجل أن ينافسها فيه.. ويظهر أن الطبيعة لا تريد الرجل. أو ترى أنه غير ضروري.. لذلك جعلت المرأة أقوى جسميًا وأقدر على التحمل.. وفي استطاعتها أن تنجب أكثر من طفل مرة واحدة.. وكان من نتيجة اشتغال الرجل أن أصبح عدد الموتى من الرجال أكثر من عدد الموتى من النساء!!

ولابد أن خبث الرجل هو الذي جعله يفتح الأبواب أمام المرأة لكي تعمل، أي لكي تعرف نوعًا آخر من العذاب غير الحمل والولادة. والمرأة تتعب في عملها.. تتعب لأنه عمل، وتتعب لأنه يشكك في قدرتها على أن تتساوى مع الرجل، وتتعب لأنه يبعدها عن البيت وعن الزوجية.

إن اشتغال المرأة يبدد «الهالة» التي يعيش فيها الرجل كإنسان عامل.. ولكن من المؤكد أن العذاب الحقيقي للرجل العامل، هو أن نتيجة عمله، الفلوس، تبددها المرأة بسهولة.. فليس العذاب فقط أن يعمل الرجل، ولكن العذاب أن «تلعب» المرأة بعمل الرجل!

اجعلوها أصغر!

لا داعي لأن أذكر الأطعمة التي وضعت أمامنا.. فكلها معروفة.. ولكن كان عددنا خمسة.. والطعام الذي أمامنا يكفي لعشرين. والأسباب معروفة.. وبلهفة امتدت أيدينا وشربنا وأكلنا وشربنا أكثر وبسرعة شبعنا..

وواضح من تراجع كل منا في مقعده، أن كرشه يحول بينه وبين ترابيزة السفرة.. ولذلك اعتدلنا جميعًا في مقاعدنا مع الميل قليلاً إلى الوراء وحل علينا جميعًا شيء من الهدوء والبلادة، كأننا لم نذق طعامًا، أو كأننا حرمنا من الطعام.. ولابد أنه دار في رءوسنا هذا السؤال.. ما هذا العبط؟ لماذا لا نأكل على مهل، لماذا نلهث من الجري بالأيدي والعيون بين الأطباق والأكواب.. كأننا تصورنا أن هذه الأطعمة أشياء ممنوعة فأخفيناها في بطوننا؟!

ولابد أن الحالة النفسية والمعنوية لم تمكنا من مناقشة هذه الأسئلة والإجابة عليها..

فهناك أعمال أخرى أمامنا لابد أن نفرغ منها وبسرعة أيضًا.. لابد أن ننتقل إلى كراسي أخرى بسرعة، وأن نعطي للمعدة الوضع المناسب

لكي تتمدد وتهضم - إذا استطاعت - على راحتها، وأحسن الأوضاع هو النوم على الجنب وهذا يفسر لنا صور «ألف ليلة وليلة» التي تجد فيها الملك جالسًا على جانبه.. نائمًا تقريبًا لأن هذا هو الوضع المناسب لراحة المعدة والمصران الغليظ، بعد أكلة ضخمة دسمة كالإفطار في رمضان، وبعد اتخاذ الوضع المناسب يجيء الحلو.. وبعد الحلو يجيء الشاي.. ضروري الشاي.. ولكن أين يذهب هذا كله؟! أين يستقر في الجسم؟!

لقد أصبحت أؤمن بما كان يقال لنا في الريف من أن الماء ينزل في الساقين والقدمين.. ولابد أن السوائل تفعل ذلك لأن المعدة لا يمكن أن تتسع لهذا كله؟!

ولو نظرنا إلى المائدة قبل أن ننهض لوجدنا معظم الطعام على كل مائدة.. فالشخص يحب أن يأكل في وجود أطباق كثيرة وألوان كثيرة وزحمة وكلها مشهية.. أو تفتح الشهية وهذا طبيعي..

ولذلك أتقدم باقتراح من عندي.. وهو أن نجعل الأطباق أصغر وأن نطهو نصف الكمية ونضعها في أطباق كثيرة.. تمامًا كما يفعل أهل سوريا ولبنان عندما يقدمون العشاء والإفطار.. عشرات الأطباق الصغيرة في كل واحد منها ملعقة زبدة وملعقة لبن وحبتان من الزيتون..

أو كما يفعل أهل اليابان، يقدمون عشرات الأطباق التي يمكن تفريغها في سلطانية طرشي واحدة.

وبذلك يتحقق لنا الجود.. والاقتصاد أيضًا!

في المدرسة تولد أو تموت الرياضة!

يظهر أن المدارس هي التي أفسدت الملاعب - وليس العكس. فالمدرسة لا تقوي روح الجماعية أو روح الفريق.. فلا توجد بها مشاريع جماعية.. ولا أعمال يشترك فيها الطلبة بعضهم مع بعض.. وإنما كل الأعمال فردية.. فالذي يذاكر لنفسه ولوحده والذي يرسب أو ينجح لنفسه.

وصدى هذه الروح الفردية واضح جدًا في ملاعب الكرة..

وفي المدرسة نجد أن النجاح هو الغاية من كل شيء، فالطالب يذاكر لكي ينجح، ويغش لكي ينجح.. والطريقة المؤكدة لكي ينجح هي أن «يصم».. أن يحفظ ما في الكتب.. وما في الكتب مكتوب بأسلوب قديم جاف.. والمدارس عندنا يخرج منها الطالب «متعلمًا» وليس مثقفًا.. أي أنه ذاكر علومًا محددة، ولم يضف إليها شيئًا من عنده..

فعندنا طلبة متعلمون.. وليسوا مثقفين. وكذلك لاعب الكرة يلعب لكي يحصل على أهداف. واللاعب الذي لا يحصل على أهداف كأنه لم يلعب.. والمباراة التي ليست في الكأس أو الدوري لا يهتم بها أحد من اللاعبين أو المتفرجين.. تمامًا كطلبة المدارس.. ويجب أن يكون

الدافع الأساسي له هو الحصول على الدرجات.. والدرجات هي طريق النجاح.. والنجاح هو كل شيء..

ولاعب الكرة لا يحسن أي شيء آخر.. لاعب الكرة يجب أن يكون في غاية اللياقة البدنية، واللياقة هي المرونة والسرعة وطول النفس.. وهذه اللياقة لا يمكن أن تتحقق عن طريق لعب الكرة وحدها. وإنما عن طريق ألعاب أخرى كثيرة: المشي والجري والألعاب السويدية والسباحة.. والراحة أيضًا!! فاللاعب يجب أن يعرف كيف يستريح من اللعب، والطالب يجب أن يعرف كيف يستريح من المذاكرة.

ولاعب الكرة الذي لا يعرف إلا الكرة، مثل الطالب الذي لا يعرف إلا دروسه. فهو إنسان متعلم.. ولكنه ليس مثقفًا.. ولاعب الكرة فقط، هو صاحب جسم «متعلم» ولكن لاعب الكرة الذي يحسن عددًا كثيرًا من الألعاب هو صاحب جسم «مثقف»!

وكما يذاكر الطلبة في آخر لحظة، وهذه هي القاعدة المؤلمة، فكذلك لاعبو كرة القدم يذاكرون الكرة في الأيام والساعات السابقة للمباريات المهمة.

والطالب الذي يغش هو لاعب غشاش أيضًا.

والطالب الذي يحترم القانون هو لاعب أيضًا يحترم القانون. والطالب الذي يخفق مرة ثم يحاول من جديد هو أيضًا لاعب صبور..

ففي المدرسة تولد أو تموت روح الرياضة: اللياقة والتسامح والأمانة وتقديس القانون!

فإذا تغيرت الروحُ في المدرسة تغيرت الروحُ في الملاعب.

قليلون هربوا..

إن الغلطة تبدأ عادة من الطفولة، فالأم تغمر طفلها بحنانها بأحضانها وقبلاتها، إذا بكى سارعت بالطعام، وإذا غضب سارعت بالهدايا.

إن هذا النموذج من سلوك الأم هو الذي يجعل الطفل شابًا مدللاً ورجلاً لم ينضج بعد ذلك، فعلى الأم ألا تقبل ابنها كثيرًا، وألا تعانقه، وعليها أن تتركه يعيش بعيدًا عنها.. وألا تجعله يشعر لحظة واحدة بأنها تراه، وإذا أحست بشيء من الشوق أو الحنين إلى طفلها فلتنظر إليه من ثقب الباب، ومن الواجب أن تعامل طفلها على أنه شاب، وليس على أنه طفل، وأهم نصيحة: أن تكون قبلات الأم لطفلها على جبهته وليس على خديه أو شفتيه وأن يتبعها الجميع بنفس الأسلوب.

بهذا السلوك من الأم، والسلوك من الطفل يصبح المجتمع أصح وأشد صلابة وأسرع نضجًا!

ويمكن أن نضرب مثلاً ملموسًا.. فقد لوحظ في اليابان أن الفتيات لهن سيقان معوجة، كان ذلك قبل الاحتلال الأمريكي لليابان.. ولماذا؟ لأن الأم كانت تحمل ابنتها على كتفيها حتى سن متأخرة..

وتلتف ساقا الطفلة حول خصر الأم، وتكبر الطفلة وساقاها ملتويتان.. ولكن في الثلاثين عامًا الماضية خرجت المرأة اليابانية إلى العمل.. ولم يعد عندها وقت لتحمل ابنتها، وتركت مهمة حملها للأرض.. فاستقامت ساقا الفتاة اليابانية لأنها مشت على الأرض ولم تتعلق من ظهر الأم أو كتفيها، وهذا واضح عندنا أيضًا في الريف المصري ومعنى ذلك أن الطفل الذي يركب كتفي أمه تلتوي ساقاه، والذي يعتمد على نفسه تستقيم رجلاه، والذي يحدث في الساقين يحدث في السلوك العام للطفل.. فلكي يستقيم الطفل يجب أن نبعد عنه الحنان الزائد للأم!

ولكن إذا فعلنا ذلك مع أي طفل فإن هذا الطفل الذي لا يعرف الحنان لا يعرف الأمان، والذي لا يعرف الأمان لا يجد الشجاعة على أن يواجه حياته، ويشعر بالغربة والانطواء في سن مبكرة ولا يثق في أحد من الناس، ويكون خائفًا من المجتمع أو يكون كارهًا لكل علاقة بين طفل وأمه أو بين رجل وامرأة.. ويصبح إنسانًا آليًا لا يربطه بالناس شيء إلا ضرورة التعايش معًا، والتجاور في المكان.. ويكفي أن تذهب إلى ملجأ اليتامى أو اللقطاء لتعرف ما هي مفردات التعاسة الإنسانية وكيف يكون الإنسان إذا لم يعرف من هي الأم ومن هو الأب، وإذا أحس أنه بلا ذنب قد تحول إلى سجين، وكيف أنه يريد أن ينسى كل هذا الماضي إذا خرج ليعيش بين الناس!

إن القليلين هم الذين استطاعوا أن يفلتوا من هذه المرارة والحقد على الناس والتآمر على المجتمع.

فلا دائم إلا وجه الله..

رأيت ثلاثة من الملوك وقد جار عليهم الزمان، لا عرش ولا جاه ولا هيبة!

الأول: أسد في سيرك.. رأيته من بعيد.. لا فرق بينه وبين الكلب، حتى شعر رأسه ليس قائمًا على حيله.. ولاحظت أن الأسد يتمسح في الجدران.. وأنه يشمشم في الأرض.. وتأكدت أنه فعلا أسد، وليس خروفًا!

وفوجئت بأن أحد مروضيه قد أخرج من جيب الجاكت كيسًا من الورق به سندوتش فول! وقدم للأسد نصفًا وبدأ هو يلتهم النصف الآخر.. وبسرعة التهم الأسد السندوتش – أول مرة أرى فيها أسدًا يأكل الفول!

وقبل أن أتعجب لما أصاب جلالته قال المروض: ومن أين نأتي له باللحوم إذا كانت تذكرة الفرجة على جلالته بقروش.. بل مصيبة كبرى لو طلب الأسد أن يأكل البرسيم.. حتى البرسيم لا نستطيع أن نشتريه!

وفي حديقة حيوانات الخرطوم رأيت قفصًا كبيرًا للدجاج وفي داخل القفص ديك رومي.. بل ليس ديكًا روميًا، وإنما قيل لي إنه نسر.. أو كان يومًا ما نسرًا.. ولكن الزمان أخنى عليه.. وإذا هو في ركن من الأركان لا قدرة له على احتمال الحرارة والعطش ولا أن يأكل الذرة!

وتحدثنا «ألف ليلة» أن النسر ملك الطيور كان يحمل الرجل ويطير به إلى قمم الجبال.. فهو يعيش مئات السنين ولا يموت إلا عند القمم!

قلت لحارس حديقة الحيوان: ماذا أصاب جلالة النسر؟

أجاب الرجل وكأنه يحاول أن يتفلسف: إنه ملك بلا رعية على أرض بلا قمم، في جو ليس به جليد.. كيف يكون نسرًا وهو يأكل طعام الدواجن.. إنه مواطن عادي في جمهورية شعبية!

وفي معهد الرازي بالقرب من طهران رأيت أفعى ضخمة – ملك الزواحف – تصيب ضحاياها بسم تطلقه قذيفة على عيونهم.. لا يخطئ أبدًا، فإذا الضحية أعمى لا يرى فتلتف حوله فتسحقه تمامًا.. ووجدت فأرًا صغيرًا واقفًا فوق دماغها. لم أفهم. فقيل لي إن الأفعى تفضل الموت على أن تأكل هذه الفئران التي تطلق روائح كريهة!!

ولذلك تأكل هذا الفأر يأسًا من الحصول على الفئران الأخرى التي يستوردونها من روسيا، ولذلك فهي جائعة تتلوى كأنها دودة قز!

فلا دائم إلا وجه الله!

عواجيز كل فرح وكل مأتم؟!

عواجيز الفرح : هم طراز من الناس موجود في كل فرح.. ومن آمالهم أن يتحول الفرح إلى مأتم.

وحتى لو تحول إلى مأتم لتحول عواجيز الفرح إلى «عواجيز المأتم» ولقالوا أيضًا: والتكاليف دي لازمتها إيه؟

إذن هم نوع من الناس لا تعجبهم الأفراح ولا تعجبهم المآتم.. فلا يعجبهم أي شيء، ولا يسألون أنفسهم: ما العمل! ما ضرورة وجودنا؟ ما قيمتنا في هذه الحياة؟ أي دور لنا؟

إن الصفة الوحيدة لهؤلاء العواجيز هي أنهم لا يغلطون.. والذي لا يغلط هو الميت أو الذي لا يعمل.. والذي لا يعمل ليس طرفًا في أي موضوع ولا أية قضية، والذي ليس طرفًا من أطراف الحياة الاجتماعية، ليس حيًا.. فهؤلاء العواجيز هم «نفاية اجتماعية».. هم «أعقاب سجاير» الأحياء.. إنهم هامشيون.

وليس من الضروري أن يكونوا عواجيز في السن.. وإنما من الممكن أن يكونوا عواجيز الروح.. عواجيز الأمل.. عواجيز الكفاح.. إن مثل هذا النوع من العواجيز الشبان عالة على المجتمع.. آفة في حقول الأمل الإنساني.. عاهة في الجسم السليم لمجتمعنا الشاب.

إنهم أناس تعرفهم في كل مكان.. إنهم يتفرجون على الذين يعملون ويشتمونهم.. ويسخرون من دموعهم.. لأنهم يرون أنه لا العرق ولا الدموع هي إكسير الحياة.. وإنما إكسير الحياة هو التواكل والوصولية والسلبية والسخرية من كل من يقيم فرحًا أو مأتمًا.. من يكسب شيئًا أو يخسر شيئًا.. إنهم يسخرون من العواطف الإنسانية ومن معنى الحياة، ومن أن يكون للحياة معنى، وأن يكون للمواطن هدف. ومن أن يكون للوطن كله هدف.

إن الحقيقة الواضحة للتسامح الاجتماعي عندنا هي أن نجد هؤلاء العواجيز في كل مكان، في كل موقع من مواقع العمل وعلى كل مستوى. وهم مع ذلك يجدون من يؤكد لهم أنهم أعمدة الحياة الإدارية وعتبة الجنة.

ولكن النباتات المتسلقة لا تعيش إلا «على» الأشجار، واللصوص لا يعيشون إلا «على» الأبرياء.. إن هذا الطراز من الناس يعيشون «على» الغير، ولا يعيشون على عرقهم هم وأرقهم هم.. ونحن اليوم نعمل - يجب أن نعمل - بكل ما لدينا من طاقة ووضوح رؤية على استئصال المتسلقين والمتسللين والمتفرجين والشامتين، عواجيز كل فرح وكل مأتم!

مشكلة الجيل الجديد..

مشكلة الجيل الجديد.. تعبير تراه كثيرًا في كل صحف ومجلات العالم.. ومعنى ذلك أن للجيل الجديد مشكلة أو أنه هو مشكلة الدنيا كلها.. أي أن هذه المشكلة «ظاهرة» اجتماعية ونفسية واقتصادية.. وتكرار هذا التعبير معناه أن الموقف لم يتغير، وأنه لابد من حل، وأن هذا الحل مطلوب بسرعة.. فهذه الأجيال الجديدة هي التي سوف تتسلم التركة الهائلة التي صنعها الآباء والأجداد بالعرق والدم أو بالعرق بلا دم، أو بالدم بلا عرق.. وتعبير «الجيل الجديد» يبرز جدًّا كلما وقعت جريمة بطلها شاب.. كأن الشبان وحدهم هم الذين يرتكبون الجرائم.. فإذا ارتكبها رجل عجوز لا تعد جريمة.. كأن تشتعل حرب عدوانية على شعب آمن، ويروح ضحيتها ألوف من الشبان، لا تكون هذه الحرب جريمة.

ومع ذلك فالجيل الجديد مشكلة.. وهي ليست مشكلة هذا العصر بالذات.. وإنما مشكلة كل عصر.. ففي كل عصر جيل جديد وجيل قديم.. والذي يصف الجيل الجديد بأنه مشكلة هو الجيل القديم! ومشكلة الجيل الجديد الآن أنه لا يريد أن يرتبط.. لا يريد أن يكون مشغولاً.. وإنما يريد أن يكون حلقة بلا سلسلة، وأن يقف وحده ويترك المسرح لغيره، ثم يخرج من منتصف المسرحية أو ينام أثناء التمثيل!

وانتشار المخدرات بين الشباب في أمريكا، مثلاً، ليس إلا نوعًا من الهرب من مواجهة مجتمع يطحنه طحنًا ويتجاهله تمامًا.. فالمثل الأعلى في المجتمع الأمريكي، وكل المجتمعات الرأسمالية هو النجاح بأي ثمن! النجاح بالغش وبالقتل.. ولا يهم أبدًا أن يكون المواطن هو الضحية.. والمواطن هو المستهلك الذي تبيعه وتشتريه وتحييه وتميته شركات الطعام والشراب والدواء والسلاح!

ولكي يرتبط الشبان ويصبحوا حلقات في سلسلة واحدة، لا بد أن تكون لهم قضية.. وأن تكون لبلادهم قضية إنسانية، ولابد من توعيتهم وتبصيرهم بمشاكل بلدهم ومشاكل العالم، ولا بد من تجنيدهم من أجل هدف إنساني، ولابد من «تهديف» أفكارهم وأحلامهم. ولا خوف من الهدف ووضوحه وقوته ما دام من أجل الحياة واستمرار الحياة الكريمة.

المصافحة.. ألوان وألوان!

الإحصائيات في أوروبا وأمريكا تؤكد أن عادة السلام باليد أخذت في الانقراض، فنصف الناس يرفعون القبعة أو يلمسونها أو يحملونها دليلاً على التحية.

أما السيدات فيرفعن أيديهن إلى الرجال لكي يقبلوها.. ولأن الرجال لا يرون في هذه العادة أي معنى كبير، فإن أكثرهم يستمر في هذه العادة التي تخفي نوعًا من الملامسة بين الجانبين.

ولم يكن مقبولاً من أي إنسان- ولا حتى من الإمبراطور نفسه في القرن الماضي - ألا يصافح أحدًا من الناس، مهما كان السبب.. ولو دخل على ألف رجل يأكلون ويشربون، فإنه يحرص على مصافحتهم، ولو أدى ذلك إلى سقوط الطعام والشراب. وهذا ولا شك أهون من إحساسهم بأن الإمبراطور غاضب عليهم أو لا يحترمهم..

وكان من المألوف في ألمانيا مثلاً في القرن الماضي أن تكون المصافحة باليد قوية ناشفة.. ولفترة طويلة.. وهذا يدل على المحبة والشوق.. أما إذا جاءت المصافحة رقيقة دون أن تشعر الأصابع والأكف بالقبضة والالتحام، فهذا دليل على الاستخفاف والاستهانة..

ويبدو أن الشرق قد عدل نهائيًا عن المصافحة باليد.. ففي الهند مثلاً نجد التحية عملية سهلة جدًا.. فالإنسان يرفع يديه إلى صدره ويضمهما معًا في احترام واضح.. فيشعر ملايين الناس أن هذه تحية عامة وخاصة لكل منهم.. ومن الممكن أن يفعل ذلك واحد مع عشرة وعشرين..

وفي اليابان ليس عليك إلا أن تحني رأسك وظهرك إلى الأمام.. تفعل ذلك لشخص عدة مرات.. وتفعل ذلك لمليون شخص أيضًا.. في البيت.. وفي الشارع. وأحيانًا على مائدة الطعام.. فإذا كنت صاحب بيت ثم شكر الناس حفاوتك وطعامك فأنت تنحني وأنت جالس بدلاً من أن تنهض فجأة وتقلب «الترابيزة» على الضيوف..

وأحسن أنواع السلام والمصافحة هو ما تفعله السيدات، فتتجاور الخدود في رفق حتى لا يفسد الأحمر والأبيض.. وكل واحدة قد أدارت وجهها للناحية الأخرى حتى لا يبدو الافتعال أو التمثيل على وجهها!! وأسخف أنواع التحيات والمصافحات هي الموجودة عندنا في الوسط الفني والأوساط التي لها علاقة بالفن كالإذاعة والتليفزيون والمسارح والصحف.. العناق والقبلات.. وأكثر الأحيان بين أناس يلتقون لأول مرة..

أما الشيء الذي لا يطاق فهو أن يقبل الرجال بعضهم بعضًا.. إنني أنتهز هذه الفرصة لأجدد احترامي للهند.. ومحبتي لليابان!

سلاح المرأة أقوى من أي سلاح!

المرأة تشعر- عادة بالضعف أمام الرجل، وتحاول أن تغطي هذا الضعف بالعلم والعمل، وبالاعتماد على نفسها.. فإذا اشتغلت مع الرجل في مكان واحد، فهي حريصة على أن تتشبه بالرجل.. أي تستعير أسلوبه في القوة..

والمرأة تكره ضعفها، وتكره أيضًا الرجل الضعيف، ولكن المرأة لا تكره أن تكون ضعيفة أمام رجل قوي تحبه.. بل إنها تفضل أن تكون ضعيفة أمام الرجل على أن تكون أقوى من الرجل..

والملكة المصرية حتشبسوت نموذج للمرأة التي أحيطت بعدد من الرجال الضعاف، فبعد وفاة أبيها الذي كان زوجها أيضًا تزوجت أخاها، وكان أخوها هذا أخًا بالتبني. وكان لقيطًا ضعيفًا، وكانت تحتقره.. وبعد وفاة أخيها هذا تزوجت أخاها الثاني، وكان أيضًا ضعيفًا جدًا.. وازداد احتقارها للرجال.. ومات هذا الأخ فتزوجت ابنه، وكان أضعف أزواجها الثلاثة.. وأحست الملكة أنها هي «الرجل» وأن في استطاعتها أن تحكم الرجال. ولذلك وضعت اللحية وفتحت صدرها، وشدت ذراعيها، وصلبت قامتها، وتقدمت الرجال وأذلت أعناق النساء، وأقامت لنفسها التماثيل التي تمجدها كرجل.. وأمرت أن تدفن بين الرجال في الدير البحري..

وبعد وفاتها هدم زوجها تماثيلها.. ومسح صورها.. وفقأ عينيها في كل مكان، حتى إذا ما بعثت يوم القيامة كانت عمياء..

لقد كانت حتشبسوت معذورة، لأنها كانت «أرجل» من الرجال والنساء في عصرها..

ولكن الأديبة الفرنسية «جورج صاند» كانت قوية الشخصية شرسة.. وكانت ترتدي ملابس الرجال. وكانت توقع في غرامها كل الشعراء والفنانين في عصرها.. وكانوا جميعًا في غاية الرقة والنعومة والأنوثة أيضًا.. وكانت تنفرد بهم الواحد بعد الآخر.. ولا تتركهم إلا والدماء تنزف من صدورهم.. مثل الموسيقار شوبان والشاعر دي ميسيه وغيرهما..

إن ملكات تجارة التجميل في العالم دميمات الوجه.. ضعيفات البنية، مريضات، انتقمن لضعفهن النفسي والجسمي بشكل آخر، وهذا ما فعلته كل من هيلين روبنشتين وإليزابيث أردن وماري كلير.. فقد قررن أن يخربن بيت الرجال، فيقبل الرجل هذا الخراب وهو سعيد.. فعن طريق أدوات الزينة والتجميل ازدادت أنوثة المرأة وجمالها، وازداد إقبال الرجال عليها.. ودفعوا الثمن من مالهم ومن أعصابهم..

أي أن ملكات الجمال حتشبسوت العصر الحديث قد أضعفهن الرجل أكثر من مرة – والرجل سعيد بما يرى، والمرأة سعيدة بما تجد!

أنت تبحث عن المتاعب؟

ليس صحيحًا أن الإنسان يحب الراحة.. فالإنسان يفعل الكثير من الأشياء التي ترهقه في حين أنه في الحقيقة يريد أن يستريح.. فالذي يشكو الأرق لا يتوقف مع ذلك عن شرب القهوة والشاي.. أنا مثلاً! والذي يشكو من تعب في عينيه لا يكف عن الجلوس أمام التليفزيون. ولا يكف عن تناول المشروبات الباردة التي تسبب له الإمساك الذي يسبب الصداع ووجع العينين!! والذي يتعب من التدخين لا يكف عن السجائر.. وفي استطاعتك أن تنظر إلى كل أصدقائك، فتجد أناسًا يلعنون السجائر، والذي اخترع السجائر، والذي اكتشف السجائر.. ومع ذلك لا يتوقفون عن التدخين! وهذا يشكو لك من ضيق الحال وقلة المال وكثرة العيال.. لو نظرت إلى أصابعه فسوف تجد فيها سيجارة لا تنطفئ إلا في سيجارة أخرى!

وهذا يشكو من كثرة الأفواه في بيته.. الزوجة وخمسة من الأولاد وسيدة أخرى تعمل في البيت.. فعلاً هذا عدد كبير على أي إنسان مهما كان دخله.. ولكن ما الذي أرغمه على أن يكون له كل هذا العدد؟

وتسأله فيقول لك: أمر الله!

ولا اعتراض على مشيئة الله.. ولكن الله أعطى الإنسان مشيئة أيضًا.. وهذه المشيئة مربوطة في عقله، وعقله يقول له «على قد لحافك مد رجليك».. واللحاف صغير والأرجل طويلة وكثيرة.. إنه لا يريد أن يستريح.. إنه يريد أن يجد مبررًا للشكوى والبكاء!!

ونحن في المدن نشكو من أن أعصابنا مرهقة.. فما الذي نفعله لكي تستريح هذه الأعصاب؟ إننا نذهب إلى أفلام الرعب والأشباح والدم والموت.. نتزاحم بالمئات لكي نجد مكانًا أمام شاشة تسيل فيها الدماء وتمزقها الصرخات وترتادها الأشباح والعفاريت.. لماذا؟ لأننا نريد أن نخاف.. لأننا نريد أن نصاب بالفزع والرعب.. لأننا نريد أن نستريح فنفعل ما يضاعف من متاعبنا!

فليس صحيحًا أننا نبحث عن الراحة.. إننا نبحث عن التعب وعن الشقاء والعذاب بدون أن ندري!

ووجد الأبطال حلاً: قتلوني!

كاتبنا الكبير سمير عطا الله حكى لنا أنه كان يكتب مسلسلاً بوليسيًا فوجد من الضروري أن ينهي المسلسل بقتل البطل.. هل زهق من البطل أو أن البطل زهق من المؤلف فكان هذا القتل الرحيم..

ولي تجربتان. فعندما كنت أعمل في مجلة «روزاليوسف» كنت أنشر أخبارًا عن لهو الملك فاروق وعبثه. وكانت لي صديقة فرنسية-إيطالية هي التي تبعث لي بقصاصات الصحف الفرنسية والإيطالية واسمها (سيلفانا ماريللي).. وبسبب خلاف بيني وبين السيدة روزاليوسف تركت العمل معها وانتقلت إلى «أخبار اليوم». وفي أول مقال لي دبرت حادثًا بقتل سيلفانا ماريللي تحت عجلات إحدى السيارات.. وبذلك لن يستخدم أحد اسمها في غيابي!

أما التجربة الثانية فقد كتبت مسلسلاً في مجلة «الجيل» التي كنت أرأس تحريرها سنة 1960. المسلسل عنوانه: «عريس فاطمة». وقد كتبت عشرين حلقة. وتوقفت. فلم أعرف كيف أكمل هذا المسلسل. ولم أفلح في أن أجد لفاطمة عريسًا مناسبًا. وعدت بعد خمس سنوات أكمل هذا المسلسل. وكانت الحلقة الأولى أن قفز كل أبطال المسلسل يحاكمونني. فقد جعلت حياتهم صعبة ومعقدة لدرجة أنهم لا يعرفون

الخروج منها، وخصوصًا فاطمة الفنانة الشاعرة الفيلسوفة لم تجد شابًا يناسبها.. أو وجدت ولكن الشاب لا يعرف كيف يتعامل مع فتاة جميلة لها فلسفة أفلاطون وشعر شوقي وبلاغة طه حسين وحرية سيمون دي بوفوار.. وناقشتني فاطمة ولم أفلح في إقناعها. وقد فات وقت الاعتذار عن كل العقبات الصعبة.

وكذلك بقية أبطال المسلسل، وتكاثروا وقتلوني. ثم ظهر «عريس فاطمة» في فيلم سينمائي جميل لم يجد ضرورة لقتل المؤلف – وما فعله الممثلون على الشاشة كان لطفًا منهم، وما فعله الأبطال على الورق كان عقوبة يستحقها المؤلف!

الهرب من العذاب إلى العذاب!

وقفت في طابور طويل يزداد طولاً.. والطابور قد التوى.. وتشاغلت بالناس أمامي وورائي.. أنظر إلى ملابسهم.. إلى السجائر والتليفونات المحمولة في أفواههم.. لا ملابسهم متشابهة ولا تسريحات الشعر.. ولا احد منهم يكلم أحدًا. وليس في نيته. شيء غريب. وبعضهم أخرج الكتب وراح يقرأ ويقلب الأوراق. طابور كأنه عمود فقري.. فلسنا إلا فقرات في ظهر حيوان ضخم لا نراه.. صمت وهدوء وظلام.. نعم ظلام لأننا لا نرى بعضنا البعض ولا نسمع ولا ندري.. وطال الطابور والتوى هناك ولا يتحرك إلا خطوة نحو بوابة قصر الإليزيه الفرنسي. فقد نشرت الصحف أن الرئيس ساركوزي سوف يصافح كل الضيوف مرة كل سنة!

سألت جاري: تفتكر أمامنا كم من الساعات لندخل القصر؟ ولم يجب إلا بعد أن التفت يمينًا وشمالاً، ثم قال في هدوء: لا أقل من تسع ساعات!

وسألت: والكل يعرف ذلك؟

فأجاب: نعم. وسألت: وكم تستغرق الزيارة؟ فأجاب: ربما عشر دقائق!

تسع ساعات من الوقوف على رجل بعد رجل لرؤية قصر متواضع لمدة عشر دقائق.. ولا أظن أن السيد الرئيس سوف ينتظر هذه الساعات التسع ليصافح الزوار. ولكن الصحف نشرت أنه صافح الزوار – بعض الزوار!

وكانت تجربة في الصبر. هل أبقى هذه الساعات من أجل هذه الدقائق. اتصلت بالسائق وطلبت إليه أن يذهب إلى غرفتي في الفندق. وأن يمد يده إلى أي كتاب ويأتي به. وبعد نصف ساعة جاء السائق ومعه أسوأ كتاب يمكن أن يصادف أحدًا! إنه كتاب المؤلف الإنجليزي ريتشارد دوكتر عن الكفر بالله – أعوذ بالله!

وسألت جاري: افرض أنني ذهبت لأجلس على هذا المقهى هذه الساعات التسع. ثم جئت لأستعيد مكاني بين الواقفين؟ فأجاب بسرعة: طبعًا لا..لقد ذهب مكانك! هذه إهانة لنا جميعًا!

واعتذرت عن إهانة لم تحدث وجلست في المقهى هربًا من طابور كرهته إلى كتاب كرهته أكثر!

سيدتي: إن قلبك يوجعني!

لي كتاب ترجم إلى الإيطالية عنوانه «قلبك يوجعني»، وهو مجموعة من الرسائل إلى الصديقة سينا روصنم.. وكان من الممكن أن يبقى بالعربية فهي تعرف العربية وتجيدها، ولكنها شاءت أن تجرب حظها في زحام الأدب المعاصر. وأن يكون تحت عنوان: رومانسية عربية..

وهي التي اختارت هذا التصنيف. ولكن عندما كتبت لها لم أكن أعرف تحت أي عنوان، ومن أي باب وعلى أية قاعدة أستقر. إنني أكتب وبس.

قلت لها: عندي إحساس أنني لم أكمل عبارة واحدة قلتها، حتى لو كررتها ألف مرة، فما يزال هناك ما أقوله. فالكلام بيننا ليس نهائيًا. فلسنا نكتب معادلات حسابية أو هندسية.

وليس الذي نقوله بديهيات وإنما نحن اخترنا الظنون والأوهام والأحلام. واخترنا ألوان الشفق وألوان الغسق ولم نكتب نهارًا ولم ننسج عباراتنا من خيوط الشمس، فليس الذي نقوله كلامًا بالعقل والمنطق. فلا أنت أرسطو ولا أنا كارل ماركس.. ولكن أنت الشاعر بتراركه وأنا الشاعر لرمنتوف..

تقولين في رسالتك الأخيرة: إن كل شيء يغريك بالنوم.. فقد تعبت من اليقظة. وأحسست كأنك الإنسان الإغريقي الذي خلقته الآلهة من دون أن تكون له أجفان.. فهو مفتوح العينين أبدًا.. وأنت الذي وضعت لي هذه الأجفان. ولولاك ما كان ليل ونوم وأحلام وسعادة.

أشكرك ولكنك يا سيدتي نسيت أنني خلعت أجفاني ووضعتها لعينيك.

فنامي في هدوء وهناء. اتركيني أحرسك. فإذا صحوت من نومك السعيد لا تنسي أن تعيدي أجفاني إلى عيني.. وإذا كانت عينك توجعني فإن قلبك أيضًا يوجعني..

لقد كنت أدعو الناس أن ينظروا إلى وجوههم في المرآة أو إلى شهادة ميلادهم.. لكي يعرفوا أنهم كبروا وأن كلامهم صغير.. أن عقولهم كبرت ولكن قلوبهم صغيرة. إن الفنان له عمران، عمر شهادة الميلاد وعمر القلب الذي لا يكبر ولا يشيخ.

إنني لا أكتب، وعليك أن تختاري لى عمرًا. أما أنا فأعرف عمري ولكن لا أعرف لك عمرًا ولا أريد..

أعجبني كلام الأميرة فريال!

أنا على صلة يومية بالأميرة المصرية فريال - آخر بنات الملك فاروق. ولم تشأ أن تخبرني أن لها حديثًا على إحدى الفضائيات. ورأيتها. وأعجبتني وأدهشتني. وكان الذي يجري معها الحديث رجلاً خشنًا غليظًا. فقد أتاحت له فرصة نادرة أن يكون لطيفًا ظريفًا، ولكنه فشل!

أما الأميرة فريال فقد عاشت حياة قاسية في سويسرا. لا عندها فلوس ولا عندها مجوهرات تنفقها وتعيش. فقد كانت تجمع الثمار من حدائق البيوت السويسرية المجاورة لها. ولم ينقذ الأميرة وأخاها الملك أحمد فؤاد إلا الأمير عبد العزيز بن فهد، فقد كان شهمًا نبيلاً كريمًا. فتوقفت الأميرة عن جمع الثمار، وانتقل الملك أحمد فؤاد من الحياة فوق السطوح إلى شقة وسيارة ومديرة بيت..

وتحسنت الحالة المعنوية للملك أحمد فؤاد وأخته الأميرة فريال بعد أن حكمت له المحكمة بالطلاق من زوجته المغربية اليهودية فضيلة - بعد 11 عامًا. وفي هذه السنوات حجزت على أمواله وكل ما يملك، حتى لم يعد يملك لا أبيض ولا أسود. ومما يحزن الملك أحمد فؤاد أن مطلقته منعت أولاده من الاتصال به. ويقول: من الغريب أن

الذي يسأل عني هو ابني الذي سئلت في بنوته.. أما ابني الحلال فلا يسأل!

وفي حديثها كانت الأميرة فريال مهذبة محترمة. لم تهاجم أحدًا ولم تجرح. وكانت بلا مرارة. وإنما واقعية وبسيطة. سألها: ما شعورك إذا رأيت قصر عابدين؟ الذي كانت تقيم فيه، فكان ردها: ولا حاجة.. إننا لا نملك هذا القصر، فهو قصر الملك الذي قبلنا والذي بعدنا، إنه ليس ملكًا لأحد.

وسألها: كيف عاشت وتعيش؟ فقالت: لولا مساعدة الأسرة المالكة السعودية..

قالت لي الأميرة فريال إنها كانت خائفة من هذا اللقاء.. ولكنها برغم ذلك أجرته، وفي وضوح وفي أدب ولطف، بينما كان الذي يجري معها الحديث لا لطيفًا ولا ظريفًا.

أب بالقطعة وأب بالتعيين!

في المجتمعات البدائية عندما تلد الزوجة يهرب زوجها إلى الغابة، وبعد أيام يذهب إليه أفراد من القبيلة يؤكدون له أن المولود إنسان وليس حيوانًا: أي أن زوجته لم تكن على علاقة بحيوان آخر، وأن المولود شبيه جدًا به، ومعنى ذلك أنه هو الأب الشرعي للطفل.

وكثير من العادات البدائية أخفتها الحضارة الحديثة بأغشية رقيقة مهذبة، فلا يزال هذا الشعور موجودًا بشكل ما عند الأب.. فكل ما يصنعه عندما تلد زوجته أنه يشعر بشيء من القلق عليها.. وأحيانًا يخفي قلقه في أحد الأفلام، ويترك الزوجة تصرخ وتلعن الطب والدكاترة والممرضات.. وعندما تضع طفلها تعرف من اللحظة الأولى أنها أم، وأنها تعذبت في الحمل والوحم والولادة وأنها اجتازت اللحظة العجيبة، وهي لحظة الولادة، وهي أعذب أنواع العذاب..

وعندما يجيء الأب يتفرج على المولود تؤكد له الأم والأخوات والخالات والعمات أنه – أي الطفل – الخالق الناطق أبوه.. عينه وأنفه وشفتاه.. ولا يرى الأب عادة شيئًا من هذا كله.. ولا يتساءل الأب عادة ما هو المقصود من هذه المقارنة بينه وبين قطعة من اللحم ليست لها أية ملامح!

وتعلم الأم بالغريزة أن زوجها يريد أن يقوم بمهمة الزوج فقط.. أما هي فعليها أن تكون زوجة وأمًا؛ ولذلك تحاول بمجهود هائل أن تنقل الزوج إلى وظيفته الجديدة.. وهي وظيفة الأب.. وذلك بأن تشغله بالطفل أو بالأطفال.. ومتاعب الطفل وأمراضه وضحكته ولعبته.. وإذا بالأب الذي لم يبذل أدنى مجهود في أن يكون أبًا، قد تحول بالتدرج إلى أب.. وأصبحت الأبوة نوعًا من الهواية.. ولكن الأم تبذل جهدًا آخر في أن تجعله يتحول من الهواية إلى الاحتراف.. ومن أب ينفعل عند كل طفل يولد إلى أب يعمل بالقطعة، إلى أب موظف.. أب بالتعيين..

وطريقة الأم هي أن تجعل الأطفال يتعلقون بأبيهم ويرتبطون به عند الأكل والنوم.. بل إنها تقسو على أطفالها ليرموا أنفسهم في حضن أبيهم، فيقوم الأب في هذه «المناورة» بدور رجل السلام..

وكل المعارك التي تدور بين الأزواج عند ولادة طفل ليست إلا محاولة عنيفة من الزوجة أن تجعل زوجها أبًا، وليست إلا إصرارًا من الزوج أن يظل زوجًا.. ولكن هذا الإصرار لا يلبث أن يلين.. أما الكلمات التي تنتهي عادة بنون وألف - أي ابننا وطفلنا ووحيدنا وخلفتنا- فهنا لا يملك الزوج إلا أن يكون أبًا بالتعيين!

البوصيري أصدقهم!

رجل طيب مؤمن، كان عنده إحساس بأن شيئًا سوف يحدث له.. كان إذا تناول طعامه انفرد بنفسه في انتظار ذلك الشيء.. وإذا نام ذهب إلى غرفة بعيدة وتمدد على الفراش وانتظر.. لم يكن ينتظر الموت، وإنما كان عنده إحساس غريب بأن زائرًا سوف يدق الباب، وأن ذلك الزائر من بلاد بعيدة، وأن لديه رسالة خاصة.. ولكن، من أين أتى بهذه الإحساسات؟ لا يعرف.. وإنما يجب عليه أن ينتظر وأن يكون نظيفًا طاهرًا.. ولم يحدث أحدًا من الناس في ذلك. وكان هذا الرجل نصف مشلول.. وفي نومه رأى النبي ﷺ ولمسه بيده الكريمة، ونهض الرجل الصوفي، وهو الشيخ البوصيري، وهو شاعر مصري ظريف أيضًا.. ويقول البوصيري: إن الرسول ﷺ ألقى عليه «بردة» أي ثوبًا.. وجد البوصيري نفسه ينظم قصيدته الجميلة التي اسمها «البُردة» في 182 بيتًا، ولم يكملها مرة واحدة، وإنما توقف قبل نهايتها، ويقول إنه رأى الرسول مرة أخرى فأكمل له أحد أبياتها.

ولم تنتشر قصيدة في مدح الرسول ﷺ كما انتشرت «بردة» البوصيري هذه.. فالناس يقرأونها في كل البلدان العربية، في الصباح والمساء، ويتبركون بأبياتها وبتلاوتها، وقد طبعت هذه

القصيدة في كل عواصم الشرق الأوسط، وترجمت إلى كل اللغات، وقلدها مئات الشعراء.. وأشهر الذين قلدوا البوصيري أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته المعروفة «نهج البردة» أي على نهج البردة، والتي تغني أم كلثوم بعض أبياتها.. ولكن البوصيري كان أكثر إيمانا.. فالبوصيري في قصيدته يشكو من عذابه في حب الرسول وأهل البيت، ويطلب من الناس أن يعذروه.. فيقول:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة

مني إليك ولو أنصفت لم تلم

وقبل البوصيري قال الشاعر ابن الفارض:

يا لائمًا لامني في حبهم سفهًا

كف الملام فلو أحببت لم تلم

وبعد البوصيري قال شوقي:

يالائمي في هواه والهوى قدر

لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم

ولكن البوصيري كان أصدق وأكثر إخلاصًا وأكثر شفافية، وأكثر استغراقًا في فنه حتى رأى الرسول ﷺ فأنشدها.. لقد شفاه الإيمان، وخلده الفن!

عصر (البقلمة) واللامعنى!

عملت في صحيفة «الأهرام» سنة 1950 لمدة ثلاث سنوات وتركتها إلى العمل في «أخبار اليوم» حتى سنة 1976، ثم عدت إلى «الأهرام» أكتب مقالي اليومي.. أهم ما كتبته في «أخبار اليوم» هو أنني الذي كنت أكتب القصة القصيرة يوميًا لثلاث سنوات من دون أن أضع اسمي في نهايتها؛ فلم يكن مسموحًا لأمثالي الصغار أن تكون لهم توقيعات فلجأت إلى حيلة. فقد كنت أبعث بمقالات إلى «الأهرام» بإمضاء د. أنيس محمد منصور فكانوا ينشرونها بحفاوة شديدة، ولم يعرف رئيس التحرير ذلك إلا بعد سنوات من تركي «الأهرام»!

وفي «أخبار اليوم» كانوا يحتفلون بالشبان ذوي المواهب، وكانوا يكتبون بقلم فلان، ومعه صورة.

وقد كانت لنا تجربة فاشلة في مجلة «الجيل» التي كنت أرأس تحريرها. فقد رأى الأستاذ علي أمين أحد صاحبي «أخبار اليوم» أن نحاكي مجلة «التايم» الأمريكية فننشر موضوعات من دون إمضاء وتحملت وحدي هذا العبء، فكنت أعيد صياغة المقالات أو أكتبها وقليلاً ما فعل الأستاذان علي أمين ومصطفى أمين، وتعبت..

ولكن لماذا؟ لأن صغار المحررين يضعون أسماءهم على مقالات لم يكتبوها وهذا إفساد لهم، ولم نستطع أن نصبر على هذا العذاب إلا شهرين. وعادت التوقيعات الصغيرة والكبيرة في نهاية المقالات.. ودخلنا – ولم نخرج – في عصر (البقلمة) أي بقلم، لكل من هب ولم يدب.. حتى إننا نرى الخبر من سطرين وثلاثة وقبلها إمضاء المحرر. هكذا كتب فلان أن كذا وكذا... ولم يعد ممكنًا أن يكتب أحد أي شيء من دون توقيع عليه.. وانتقلنا من مرحلة (البقلمة) إلى مرحلة بقلم ومعه صورة للكاتب.

ولم يعد مهمًا ماذا قال، ولكن المهم هو أن يكتب اسمه مقرونًا بصورته؟ وبس! وأكثر من ذلك أن يكتب رئيس التحرير مقالين وثلاثة مع (بقلم) وأكثر من صورة أيضًا. ولا يجد حرجًا ولا يخجل.. لقد ذهب زمن إنكار الذات والعمل الجماعي.. وتأكدت الفردية بالقلم والصورة!

ومعهم حق؛ فلم يعد أحد يقرأ وإنما يرى الصورة التي هي مثل البطاقات الشخصية تؤكد أنه حي يرزق. ولا يهم ماذا قال!

العبقرية تجيء من الخروج على المدرسة

على موقع مؤسسة نوبل مقال بديع عن كراهية عدد من الفائزين بالجائزة للمدرسة والتعليم المدرسي.. ويرون أنهم ثاروا عليها في سن صغيرة وأكملوا دراستهم وعلومهم في بيوتهم.. يتقدمهم شاعر الهند طاغور الفائز بجائزة نوبل في الآداب سنة 1913..

وأينشتين الفائز بنوبل في الفيزياء سنة 1921.. وبرنارد شو الفائز بنوبل في الآداب سنة 1925.. ورامان الهندي الفائز بنوبل في الآداب سنة 1928.. والفيلسوف برتراند رسل الفائز بنوبل في الآداب سنة 1950.. والزعيم تشرشل الفائز بنوبل 1953.. وريتشارد فينمان الفائز بنوبل في الفيزياء سنة 1965.. وساخاروف الفائز بجائزة نوبل في السلام سنة 1975.. وأنوبترناس الفائز بجائزة نوبل في الفيزياء سنة 1978.. وشاندر شيمار الهندي الفائز بنوبل في الفيزياء سنة 1983.. وكارلتون جودجك الفائز بنوبل في الطب سنة 1976.

وتطلب مؤسسة نوبل إن كان لدى أي أحد معلومات عن العظماء الذين كرهوا المدرسة أن يبعثوا بمعلوماتهم.. وأنا أتقدم بمعلومات عن أستاذنا عباس العقاد الذي لم يكمل تعليمه وكره طوال عمره الجامعات والجامعيين.. وكذلك الفيلسوف الدانماركي كركيجور

أبو الفلسفة الوجودية.. أما رأي هؤلاء العباقرة فمتشابه تمامًا.. وهو أن المدرسة تنفرد بالصغار البسطاء وتفسد استقلالهم الفكري، وتضع عقولهم في قوالب جامدة.. وأنها لا تشجع على نمو الشخصية وقدرتها على الإبداع.. وأن المدرسة لا تطلب من الصغار الأبرياء إلا الانضباط والوقوف في الطابور.. وأن يكونوا نسخة واحدة.. فكل الإبداعات تتولد خارج المدرسة، وليس الخروج عليها!

نبوءة حكيم فرعوني لكل العصور!

حدث وسوف يحدث. ما دام الإنسان هو الإنسان. هو العادل والظالم. والذي يشكو من الجوع والذي يشكو من التخمة. القوي والضعيف. والصبور والذي نفد صبره؛ ولذلك فالتاريخ يعيد نفسه.. أي الإنسان يعيد مواقفه. ولو ذهب الإنسان إلى القمر لفعل بالضبط ما يفعله على الأرض. وقد حدث تحرش وكاد أن يكون اغتصابًا في إحدى سفن الفضاء.. عندما هاجم اثنان من الرواد الروس إحدى الرائدات وكاد يقتلهما رائد ياباني.. فما المعنى؟ إن الإنسان هو الإنسان حتى لو ارتفع عن الأرض مئات ألوف الكيلومترات.. فالذي ارتفع؟ هو السفينة، أما الذي انحط فهو الإنسان..

وفي التاريخ الفرعوني عندنا قصة.. أو حادثة أو نبوءة. ففي الأسرة السادسة أيام الملك بيبي الثاني قامت ثورة في البلاد. وفتكت الناس بالناس. وهدموا وأحرقوا وثاروا. ووصف لنا التاريخ وصفًا بديعًا حكيمًا اسمه (أبيور)، أما هذا الحكيم فقد جاءت شهادته تحت عنوان (صرخة نبي)..

يقول النبي الفرعوني: انظر (يقولها للملك الذي جاوز المائة من عمره).. انظر. الثورة تزأر نيرانها في كل مكان من مصر. وقد تغطت

الأرض بالقذارة. ولم تعد ملابس الناس بيضاء ناصعة. وأصبح الناس فقراء عاجزين عن دفن موتاهم.. إنهم يلقونها في النيل حتى صارت التماسيح سمينة وصار الناس عجافًا.. انظر يا ملك.. واستمع إلى بكاء الأطفال والأمهات وصراخ المقهورين.. انظر، لقد فتكت الأمراض بالناس. فلا أحد يرى إلا الموتى وإلا الدماء. انظر يا ملك واستمع واحكم!

ومن العجيب أن الملك بيبي الثاني لا رأى ولا سمع ولا اتخذ قرارًا. كأنه هو الآخر قد انعدم وتلاشى.. حي وليس حيًا ولا ميتًا..

شيء واحد يجمع بين الحاكم والمحكوم في ذلك الوقت: اللامبالاة.. وكأن الناس قد فقدوا حواسهم الخمس.. وتهيأوا تمامًا للموت.. وكان الشعب في غاية الاستعداد لأن يدفنهم مع عظيم الاحتقار لهم..

حدث ومن الممكن أن يحدث في أي مكان اليوم أو غدًا!

نعم يجب أن تحب نفسك!

«يجب أن تحب نفسك».. عنوان كتاب للعالمة النفسية د. مرجريت سلكرك.

لابد أن تكون راضيًا عن نفسك. فإن كانت لك عيوب، فمن الذي بلا عيوب، وإذا كانت لك عيوب فلا تبالغ في حجمها. وحتى إذا لم تفلح في إصلاح عيوبك فلا أحد استطاع قبلك.

لا تبالغ في مخاوفك. فكل الناس يخافون. ولولا الخوف ما كانت كل الأديان: الخوف من الله.. الخوف من الشيطان.. الخوف من جهنم.. الخوف من الظلم.. ولكن هناك مخاوف معقولة ومخاوف لا صلة لك بها.. كأن تخاف من قيام حرب.. ولك أن تخاف من اشتعال النار بالبيت.. أو أن يغرق البيت من مياه الحنفية.. أو تخاف على أولادك.. على زوجتك.. أو من رئيسك في العمل.. فهذه مخاوف معقولة ومقبولة ويمكن مواجهتها.

وكن صبورًا.. فكثير من المواقف إذا صبرنا عليها وقتًا أطول أمكن حلها.. ويحدث في حياتنا أن نندم؛ لأننا تعجلنا فيما فعلنا فأخطأنا.

والمثل يقول: إن الإنسان الصبور هو الذي أمسك نفسه دقيقة واحدة أكثر من غيره.

انظر إلى حياتك كأنها حديقة.. فيها الورود والشوك.. وفيها الأشجار المثمرة وفيها العشب.. وفيها النحل يمتص رحيق الزهور.. وفيها الحشرات تفسد الفاكهة.. وفيها الظلال والروائح العطرية.. وعليك أن تضع بذورًا لأشجار ونباتات من كل نوع. وعلى مهلك.. يجب ألا تتعجل. فعباقرة العلوم والفنون والآداب هم أناس اتصفوا بالتأني. فكثير من الشعراء يحكى أنهم نظموا بيتًا واحدًا من قصيدة في يوم واثنين.. والعلماء يجربون مرة وألف مرة ولا يعرفون الملل.. وهم يعلمون أن الحقيقة عزيزة المنال. ولكن ممكنة إذا كانت المثابرة هي زادهم. فاصبر صبرًا جميلاً.. لا تيأس.

ثم نصيحة: لا تكره عيوبك.. فهناك عيوب لا علاج لها. كأن تكون ضعيف البنية أو قصير النظر أو بكرش. لا تكره هذه العيوب فهي جزء من ملامحك.. فلا تشغل بالك وانظر إلى ما هو أهم.

وأخيرًا: اضحك يا أخي.. فرفش.. والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: إن لبدنك عليك حقًا – أي أن تريحه وأن تعالجه وأن تجمله وأن يسترخي وأن ينام، حاول!

ومن الذي لا يقول: آه؟!

..وأنا أيضًا من (الأواهين)..

أي أقول: آه.. وأقولها كثيرًا. ولكن أجد في النهاية أي كلمة آه مثل كلمة (ياريت) كما تقول أغنية فريد الأطرش: كلمة يا ريت عمرها ما كانت بتعمر بيت. صحيح. ولكن كيف لا أقول يا بطني.. يا قلبي.. يا دماغي. يا ضرسي.. آه على الذي راح من عمري ولم أستفد شيئًا.. كيف لا أقول آه لو كنت فعلت كذا بدلاً من كذا.. كيف لا أقول: لو كنت صبرت في الحب.. لو كنت مضيت في كذا.. لو كنت تنبهت في سن مبكرة!!

ولكن (الأواهين) لهم نص آخر في القرآن الكريم. القرآن يقول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114]. ويقول أيضًا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ﴾ [هود: 75].

وقد سئل الرسول عليه الصلاة والسلام عن معني (أواه) فقال: إنه المتضرع إلى الله.. وقيل الرحيم بعباد الله.. وقيل المؤمن. والأواهون إمامهم جميعًا هو أبونا إبراهيم عليه السلام.

كم ليلة سوداء باردة تحملناها بالتضرع إلى الله: يا رب.

كم مصيبة حلت بعزيز علينا فلم نجد حلاً لها إلا بأن نقول: يا رب.

كم مريض وقفنا إلى جواره ونظرنا إلى العقاقير والأطباء داخلين خارجين ودرجات الحرارة طالعة ونازلة ودقات قلبه مسرعة ومتراخية ونظرنا إلى فوق نقول: يا رب..

كم مرة اهتزت الطائرة تكاد تتحطم في السماء.. كم مرة تكاد تبتلعها العواصف ونظرنا من نافذة الطائرة فنري برقًا كأنه كرابيج من نار أو سيوف في أيدي الشياطين تريد أن تقصف أعمارنا فقلنا يا رب..

كم مرة اتجهنا إلى الله ولم نجد أجمل مما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام خارجًا من الطائف والكفار يدقون قدميه حتى سالت الدماء فاتجه إلى ربه يقول: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس»..

ولابد أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «آه.. ألف آه.. فقد كان (أواهًا) حليمًا».

عن النوم.. كلام يغريني!!

يسألونك عن النوم قل: إنه مثل الغول والعنقاء والخل الوفي – كما قال الشاعر القديم– أي شيء نادر.

قرأت مقالاً لعالم النفس الأمريكي لوري كيس يقول: بل ليس أسهل من النوم للأسباب الآتية.. مدد رجليك وذراعيك ولا تفكر في أي شيء.

لا تذهب إلى الفراش إلا إذا كبس عليك النوم.

إذا كان لابد أن تتناول طعامًا في الليل فليكن ما خف وزنه. عندما تكون لديك هموم فحاول ألا تنقلها معك إلى الفراش حتى لا تكون المخدة من الشوك والسرير من الدبابيس واللحاف من (بودرة العفريت) وهي مادة بيضاء تفرزها بعض النباتات ويكون لها لمس النار والشرار.

لا تخجل إذا كنت لا تستريح في النوم إلى جوار زوجتك، ففي بقية غرف البيت راحة لك. وإذا صعب عليك هذا الأمر.. فاعمل على أن تجعل زوجتك تترك لك السرير والغرفة.

هناك بعض المشروبات المنبهة لا تتناولها من بعد الظهر.. وهناك بعض العقاقير أيضًا.

يجب أن تقنع نفسك ليلاً ونهارًا بأن النوم قادم لا محالة. وأنك مستعد للقائه بالأحضان والقبلات. فإذا جاء النوم وجدك مستعدًا تمامًا. ودوام الشكوى من قلة النوم - كما أفعل أنا - هو أكبر مبرر للنوم ألا يطرق لك بابًا ولا شباكًا ولا جفنًا. ولو سألت الذين ينامون في أية لحظة: كيف ذلك؟ لقالوا لك: نحن لا نفكر في النوم لأنه يجيء وحده.. أي إذا فكرت فيه، لا يجيء وإذا تجاهلته جاء.

هناك بعض الناس إذا غيروا فراشهم فإنهم لا ينامون. كالذين لا ينامون في الطائرة أو في الفنادق. في هذه الحالة انظر إلى الكلب وتعلم. إنه قبل أن ينام يدور حول نفسه، ثم يختار مكانًا يراه مريحًا وينام. أي إذا كنت في فندق ولم تسترح إلى النوم على السرير، فعلى الأرض.

فمن بطن الأرض خرجنا وإلى بطنها نعود!

ملحوظة: هذه المقالة موجهة لك. وليست لي. لماذا؟ اقرأ السطور الأولى من هذا المقال!

اللاتي والذين يخافون الولادة!

كثير من النساء عندهن رعب من الحمل والولادة. والسبب هو ما رأين من عذاب وبهدلة للسيدة وهي تضع مولودها. فهي تصرخ وتبكي وتلعن الطبيب والممرضات والأقارب حولها. وهي ليست قليلة الأدب وإنما كثيرة الألم. وقد يؤدي هذا الخوف إلى أن تقاوم السيدة الخائفة الحمل والولادة - وأحيانًا تصاب بالعقم!

وأذكر وأنا طفل أن رأيت أمي وخالاتي وغيرهن قد حملن سيدة على وشك الولادة. فاختبأت تحت السرير لأرى.. وكان من العادة في الريف أن يجلسوها على كرسي خشبي. والكرسي به فتحة واسعة وفي هذه الفتحة تمتد يد (الداية) - أي السيدة التي تساعد على الولادة - وتسحب الطفل من أحشاء أمه. ولم أكن أعرف!

ولذاك كنت أنظر من تحت لتحت.. وفوجئت بشيء من اللحم الأحمر يسقط من بطن السيدة التي تصرخ. ولم أستطع أن أحتمل هذا المنظر. ولا أعرف بالضبط ما الذي أخافني.. هل أحسست أنهن قد أتين بها ثم ذبحنها وسوف يذبحن المولود أيضًا؟ ولما تنبهت أمي إلى وجودي أخرجتني وأنا أبكي وأصرخ. ولا أذكر إن كانت قد ضربتني بسبب قلة الأدب - مع أنني أردت فقط أن أعرف!

ويصاب الأدباء والفنانون بالخوف من توليد المعاني ومن الإبداع إذا كانوا في الدول الشمولية. والخوف من الولادة اسمه اللاتيني (توكوفوبيا).. وهو يؤدي إلى أن يهرب الفنان من كل محاولة جديدة، أو رأي حر؛ لأنه يخاف من سطوة الدولة عليه.. وهو قد رأى غيره من المفكرين والفنانين قد دخلوا السجون وتعذبوا وأهينوا وانحطت كراماتهم.. وهو لا يريد هذه المحنة.. فقد أصبح كالمرأة المذعورة التي أصيبت بالعقم والجمود! وشعار الجميع: اهرب بلسانك حتى لا يقطعوه.. وعنقك.

من السعودية إلى سيبريا كل يوم؟

سألت الأصدقاء في السعودية إن كان العالم الفرنسي العظيم لويس باستور هو الذي اكتشف أن التسخين والتبريد قاتل للميكروبات، وإلى جانب هذا الاكتشاف عرف كيف يعالج دودة القز مما أنعش صناعة الحرير في فرنسا.. وأنه أيضًا اكتشف ميكروبات وجراثيم مسببة لكثير من الأمراض..

فالتسخين والتبريد لا يمكن أن يخطر على بال أحد إلا إذا كان يعيش في السعودية. ففي الصيف نجد الشوارع تكاد تذوب من شدة القيظ. أما البيوت فهي زمهرير كأنك في القطب الشمالي أو في الطريق إليه. والفارق في درجات الحرارة من الشارع وأي بيت من عشرين إلى ثلاثين درجة. وهذا التبريد والتسخين كاف لتنشيط الدورة الدموية والقضاء على البكتريا في أي مكان في جسمك أو في أنفك أو في فمك.

واعمل بنصيحتي: إذا كنت في الطريق إلى بيت صديق سعودي أو أي مكان يجلس فيه الأمير عبدالعزيز بن فهد، فعليك أن ترتدي ملابسك الصيفية من الفندق إلى السيارة، وفي السيارة لابد أن يكون زجاجها معتمًا أو عربة إسعاف وفي داخلها تكون قد أحضرت معك

ملابس الشتاء الكلسون من الصوف والبنطلون الصوف والجاكت الصوف والبالطو والكوفية.. وأن تلف شيئًا حول عنقك وأن تضع في جيبك أي كمية من الأسبرين. وحظك من السماء إذا كان معك طبيب خاص. فإذا فعلت ذلك فأنت - بإذن الله - آمن من الزكام والإنفلونزا.. ومن النوم أيضًا!

فإذا فعلت ذلك فأنت إنسان (مبستر) أي معقم تمامًا.

وقد كان الرومان يتركون أطفالهم الصغار ينامون في البرد لتتولد لديهم القدرة على المقاومة- وما زالوا يفعلون في السويد. وأحسن طريقة لإرضاء باستور والأصدقاء السعوديين هو أن تنام في السيارة وتتحدث إلى الأصدقاء عن طريق الموبايل.. أقول قولي هذا وأدعو الله لي ولك بالصحة والعافية - إن أمكن ذلك!

ولكن لماذا ارتفع سعر البيض؟!

فازت الأديبة البريطانية دوريس ليسنج بجائزة نوبل عام 2007 – غريبة! عجيبة، فلم يتوقع لها أحد ذلك، فهي متوسطة القيمة الأدبية.. وهي أكبر من فاز بهذه الجائزة، فعمرها 88 عامًا، وترتيبها الـ11 بين الأديبات البريطانيات الحائزات جائزة نوبل، ورقم 34 بين النساء الحائزات هذه الجائزة..

ولدت في إيران القديمة من أب إنجليزي، ثم تركوا إيران إلى أواسط إفريقيا، وتركت المدرسة وهي في الخامسة عشرة، وأكملت تعليمها في بيتها، وعملت ممرضة مثل أمها، وعاملة تليفون، وتزوجت من رجل مات في حادث سيارة، وتزوجت ألمانيًّا يهوديًّا شيوعيًّا صار سفيرًا لبلاده، وكتبت روايات نصفها عن المرأة وضرورة تحررها والنصف الآخر عن السود الذين لم يتحرروا، ورأت أكاديمية نوبل أن موقفها من المرأة هو موقف ملحمي، فهي لم تتعب في مناصرة المرأة والقيم الإنسانية والسخرية المستمرة من التفرقة العنصرية في البلاد الإفريقية التي عاشت فيها..

وبالمناسبة فأنا ترجمت كتابًا اسمه (الجائزة) من 45 عامًا.. إنها رواية للكاتب الأمريكي أرفنج دالاس، أمتع وأجمل الكتب. فموضوعه: أين كان الفائزون بجائزة نوبل عندما أبلغوا بهذا النبأ؟

كان بعضهم في البارات والخمارات وفي أحضان النساء، والكتاب جنس صارخ، وفي ذلك الوقت كان البرلمان المصري يعترض على رواية إحسان عبدالقدوس «أنف وثلاثة عيون» ويرى أنها جنسية عارية. وقبل أن يصدر كتابي اضطرني الرقيب أن أحذف 300 صفحة، فلم يبق من الكتاب إلا 700. وأحسست كأنني أقطع من لحمي ودمي.. وكان هذا هو شرط صدور الكتاب. وأحسست أنني مثل الثعالب التي تقع في المصيدة، تظل تمزق بأنيابها سيقانها وهي تنزف وتبكي لكي تهرب بما تبقى منها!

وعندما أعلنت أكاديمية نوبل فوز دوريس ليسنج كانت في السوبر ماركت تشتري شايًا وبيضًا وطماطم. وقد دخلت في مناقشات مع البائع!

وعندما عادت إلى البيت وجدت الناشر، وراحت تحكي له ما حدث. ولم تعطه فرصة أن يقول لها إن جائزة نوبل مليون ونصف مليون دولار.. ونزلت الدموع من عينيها. وبعد أن مسحت دموعها نظرت إليه تقول: أفهم لماذا ارتفع سعر البيض!

الحل.. اضرب دماغك في الحائط!

المدخنون في العالم ليسوا هم المنبوذين وحدهم.. فليس مسموحًا لهم أن يدخنوا في مكان عام لا في السيارة ولا الطيارة ولا المطعم ولا المكتب، وإنما عليهم أن يقفوا في الشارع يدخنون؛ لأن التدخين ضار بالصحة.. بصحة الذي يدخن والذي لا يدخن أيضًا.

فهناك نوعان من التدخين: الموجب والسالب.. الموجب هو من يتنفسه مباشرة.. والسالب هو من يدخن الهواء الخارج من فم وأنف المدخنين.

وفي الفنادق هناك طوابق للمدخنين وطوابق لغير المدخنين، وقريبًا سوف يقف المدخنون أمام الفنادق، بل إن بعض المتشددين يرون أن التدخين المكثف في الشوارع لا يختلف كثيرًا عن أثر الدخان الذي تنفثه السيارات في كل مكان..

المهم أنت تدخن إذن أنت ملعون!

ونحن أيضًا النباتيين..

فالذين يأكلون اللحوم تحتفل بهم المطاعم والفنادق.. فهناك أطباق الخضراوات باللحوم وهناك اللحوم المشوية واللحوم المسلوقة.. واللحوم بالتوابل، وكل نوع له أطباق وله طقوس..

أما نحن فطعامنا يلقونه في طبق وبأي شكل.. فهذه خضراوات مسلوقة وعليها كمون وملح أو ليمون.. ومن الممكن أن تأكلها واقفًا وجالسًا ونائمًا.. لا ضرر منها على ملابسك.

وأذكر أنني عندما ذهبت إلى إسرائيل لأول مرة وجدت المطعم أو أية مائدة قد انقسمت نصفين متباعدين.. ونوعين من الناس أيضًا؛ الذين يأكلون اللحم، والذين يأكلون والجبن والطماطم واللبن، وفي الشريعة اليهودية لا تقرب اللحم من اللبن أو من الجبن.. والحكمة أنه كانت من عاداتهم القديمة أنهم يطبخون اللحم في اللبن.. أي يطبخون الخروف في لبن أمه!!

ويوم ذهبنا مع الرئيس السادات إلى حيفا قال لي عيزرا فايتسمان: قل للرئيس إن عندنا مشكلة.. فقد انسحب الطهاة ولا غداء اليوم. أما لماذا انسحبوا فلأن طاهي الرئيس السادات قد أحضر أنواعًا من الجبن ودخل بها المطبخ، فلم يكد يراها الطهاة اليهود حتى انسحبوا إلى الشارع.. وراح البوليس يجمعهم عندما اختفت الجبن من المطبخ..

فما العمل؟ لا شيء، المطلوب أن نختار نحن النباتيين لنا حائطًا نظيفًا لنضرب أدمغتنا فيه!

وجاءني الرد: إلى حين ميسرة!

أول صورة للدلاي لاما في العالم هي التي نشرتها في الصفحة الأولى من كتابي (حول العالم في 200 يوم). وقد قابلته في الهملايا بعد هروبه من الصين سنة 1959. وكانت الهند، وهي الدولة التي لجأ إليها، تمنع الاتصال به. وحاولت ونجحت وصورته ووالدته التي كانت سعيدة بارتدائها فستانًا شفافًا لم يخف من جسمها شيئًا. واقتربت منه ألتقط صورة معه. فأصابني الزكام شهورًا.

فقد تظاهرت بأنني مريض. وأنني جئت من مصر إيمانًا مني ومن شعب مصر بأنه الوحيد القادر على شفائي. وكان المترجم لنا هو رئيس وزرائه الذي يتكلم الفرنسية. وعلى الرغم من أن معالم وجهه لا تدل على أي شيء فإنه قد ابتسم ابتسامة عريضة تدل على السذاجة، وعلى أن له هذه القدرة الهائلة على الشفاء - ولم يكن يعرف ذلك!

وتابعت أخباره في كل الصحف في كل الدنيا، فقد استخدمه الأمريكان للهجوم على الصين وللسخرية منها ولإغاظتها وعلموه الإنجليزية ومنحوه جائزة نوبل للسلام!

ويوم انسقت وراء الدلاي لاما وهاجمت الصين التي طردت رجلاً عالي المقام الديني من أجل التبت.. كان رد الحكومة الصينية موجزًا.. قالوا: بل نحن ننتظر أن يشكرنا الدلاي لاما. فهو يعلم أنه لو بقي في التبت لقضى عليه الكهنة. فمن عاداتهم أن الدلاي لاما يجب أن يختفي إذا بلغ الواحدة والعشرين من عمره.. ونحن وهبناه الحياة فليشكرنا!

وقد قدم الشكر فعلاً ولكن لأمريكا التي أطلقته يومًا في كل العواصم يهاجم الصين ويتقاضى الملايين. وعرفت أنه صار غنيًا جدًا.. وبعثت له خطابًا على سبيل الدعابة أطالبه بقلمي الذي أعجبه واستولى عليه.. أو يدفع ثمنه من ملايين الدولارات التي عنده فلم يرد. فأرسلت خطابًا ثالثًا وعاشرًا. إنني أبحث عن رد يكون مقالاً. وجاءني الرد بلغة التبت. فذهبت إلى السفارة الصينية في القاهرة ليساعدوني على الترجمة.. فضحك السفير ورجاله وكانت سهرة جميلة على عبط الدلاي لاما فقد كان الجواب يقول: إلى حين ميسرة!

الألمان يعجبون بها.. وأنا أيضًا!

لا أخفي إعجابي بالشعب الألماني. فقد أمضيت عمري كله إلا قليلاً في دراسة الفلسفة الألمانية والأدب الألماني. وأذكر أن دعتني الحكومة الألمانية لمشاهدة المعرض الألماني في ألمانيا والذي يفتتح في نفس الوقت مع معرض ألماني آخر في مصر. وكنت ضمن وفد الصحافيين المصريين المتخصصين في الشئون الاقتصادية. أنا ذهبت للنزهة. وأجرى معي أحد الصحافيين حديثًا وحاولت أن أجعله بعيدًا عن الاقتصاد الذي لا أفهمه. فاستدرجته إلى الكلام عن الفلسفة الألمانية. واندهش محدثي جدًا. وقال إنني أعرف في الفلسفة أضعاف ما يعرفه المثقف الألماني.. وكتب في الحديث يقول: وعلى الرغم من تخصصه في الشئون الاقتصادية فإن معلوماته عن الثقافة الألمانية في كل عصورها أعمق من أي متخصص في الفلسفة الألمانية!

فأول كتاب مترجم قرأته كان ألمانيًا.. وأول فيلم، وأول قصيدة. وأول فتاة أحببتها، وأول نشيد قومي حفظته كان النشيد الألماني.. فقد كانت الأول في كل شيء.

وليس غريبًا بعد ذلك أن أعجب بمستشارة ألمانيا أنجيلا ميركل ابنة القسيس وتلميذة المستشار الألماني كول..

كانت تعيش مع زوجها الشيوعي في ألمانيا الشرقية.. ولم تخف كراهيتها للاحتلال الروسي؛ ولذلك انصرفت عن السياسة إلى العمل. وقد عملت في أحد الكباريهات تبيع التذاكر، ثم درست الفيزياء، وتفوقت واشتغلت مدرسة في الجامعة، ولكنً عينيها على السياسة. ولم تنس والدها ولا نصائح أستاذها. وهي سيدة جادة وقويمة الخلق وعندها صبر أيوب..

وخلعت زوجها الشيوعي، وتزوجت زميلاً لها وليس لها أولاد.. ولا يحزنها ذلك.. وهي بسيطة.. وأهم ما يميزها عقلها وقدرتها على التحليل وعلى الإقناع. وتدرجت في الحزب المسيحي الديمقراطي حتى صارت مساعدة للمستشار كول. وصارت وزيرة للشباب والبيئة. ولها حركة لازمتها، وتدل على انشغالها بما تقول، وإن كان لا يبدو على وجهها شيء من ذلك: أن تدق بأصابعها على الورق أو على الكتب. وزوجها أحد علماء الكيمياء وكلاهما مشغول بعمله. وإن كانت هي التي تطبخ وتروي الحديقة وتنسق الزهور وتستقبل الضيوف. وإذا نظرت إلى وجهها في أي وقت فلن تجد إلا عينين لامعتين يتغير لونهما مع الكلام - كلامك أو كلامها!

بل العودة إلى الكهف هي الحل!

هذه بديهية علمية: الأرض ومن عليها محكوم علينا بالموت، والإنسان لا يدخر وسعًا فقد تيسر ذلك!

فالعلماء يفكرون في إصلاح غلطتهم، وإصلاح الغلطة في الروايات والأفلام هو أن البطل الذي اعتدى على الفتاة يصلح غلطته بأن يسترها ويتزوجها..

وليس هذا حالنا مع كوكب الأرض..

فأشعة الشمس قد أهلكتنا، فما الحل؟ الحل عمل مرايا جبارة تدور حول الأرض بالألوف أو مئات الألوف تعكس ضوء الشمس بعيدًا عنا، ولكن هذا الحل ليس عمليًّا فهو فادح التكاليف.

حل آخر: خلق سحب صناعية، هذه السحب تمنع الأشعة وتسقط بعض الأمطار لتخفف حرارة الأرض، وتنقذ النبات من الجفاف والأرض من التصحر، والنموذج لذلك ما حدث أيام البراكين التي تطلق ملايين الأطنان من الكبريت فتخلق سحبًا داكنة تؤدي إلى عزل الشمس وتخفيض درجات الحرارة - حدث ذلك في الكويت عندما احترقت آبار البترول- ولكن مثل هذه السحب إن نجحنا في صناعتها فسوف تؤدي إلى سقوط أمطار حمضية تقتل النبات والحيوان أيضًا..

هناك حل ثالث: وهو تخليق أشجار قادرة على امتصاص ثاني أكسيد الكربون العازل للحرارة، وهي فكرة وجيهة ولكن كم تحتاج الأرض من ملايين الأشجار!

وهناك حل رابع: وهو تشجيع النباتات البحرية على النمو، وهي قادرة على امتصاص ثاني أكسيد الكربون المنبثق من المصانع ثم الهبوط به إلى أعماق البحر، ولكن هناك خطورة على الكائنات البحرية..

وهناك حل خامس وهو أصعب الحلول، وإن كان أكثرها وجاهة.. وهو أن نقوم بتهجير سكان الأرض قرنًا بعد قرن إلى القمر والمريخ.. ومن يدري ربما تم القضاء عليهم هناك.. وبذلك تخلو الأرض إلا من عدد قليل من الناس يحاكمون العلماء كما فعلوا في العصور الوسطى وتم إحراقهم، ويعود الإنسان إلى الكهوف، إلى أن تظهر حلول أخرى!

..ولا تصريح لنا بالدفن!

قالت لي الفنانة فاتن حمامة: يا أخي اسكت، مسموع، اسكت!

وكان العشاء الأخير مع إمبراطورة إيران، وقد جلسنا حول الإمبراطورة: السيدة جيهان السادات والسيدة فاتن حمامة واثنان من رؤساء الوزراء السابقين د. عبدالعزيز حجازي ود. مصطفى خليل وأنا.

وكان الجو جميلاً، وقد أدرنا ظهورنا للأهرام، نعرفها ولا نشعر بها، فهي هناك دائمًا، ولا خوف عليها ولا شوق إليها، بينما أرادت إمبراطورة إيران ألا ترفع عينيها عن جمالها وفخامتها وعظمتها.. ولعلها تحسدها على هذا البقاء الطويل، تاجًا لم يسقط على رءوس كل عجائب الدنيا.

وكان الحوار متقطعًا، وكانت الإمبراطورة الأكثر كلامًا.. وكلامنا - إن قلنا تعليقًا على ما تقول- كان تأييدًا لها وتلطفًا معها.. ولم يشأ أحد أن يتحدث عن إيران اليوم، أي إيران بعد الشاه، فقد انتهى العصر الإمبراطوري، كما انتهى العصر الملكي عندنا، ولا عودة، وقد كانت للإمبراطور محاولات ساذجة.. وكذلك كانت للملك فاروق أيضًا، وقد كانت فرحته العظيمة يوم العدوان الثلاثي على مصر، وقد توهم أن

الفرصة حانت ليفعل الإنجليز والفرنسيون والأمريكان شيئًا لإعادته إلى عرش مصر!

وسألت الإمبراطورة : جلالتك وقد انتهى كل شيء فما أكثر شيء يحزنك على بلادك الآن؟ فأجابت بسرعة: حال الشعب.

قلت لها: أنا كنت موجودًا أيام احتفالات إيران بمهرجان برسيوليس.. وهو آخر احتفالات إيران، وربما آخر احتفالات الدنيا التي يحضر فيها هذا العدد الهائل من الرؤساء والملوك.. وكان في نيتي أن أسترسل ولكنها قاطعتني بسرعة: ولكن أين الزعماء؟! عندما خرج الشاه من وطنه لم يتسع له صدر أحد.. أنور السادات وحده هو الذي أوتي من الشجاعة والنبل ما لم يؤته أحد.. احتضن الشاه وآواه مريضًا وسار في جنازته وصلى عليه.. هذا ما لا ننساه أبدًا!

وهنا همست في أذن فاتن حمامة غير أن صوتي لم يكن هامسًا: شايفه يا فاتن أنا وأنت بس اللذان لا يقال عنهما أنهما الفنانة السابقة أو الكاتب السابق؛ لأن الفن والفكر لا عمر لهما.. فنحن لنا شهادة ميلاد.. وليس تصريح بالدفن!

فصرخت في أذني: اسكت!

فسكت واتجهت مع الجميع إلى النظر إلى الأهرامات التي انعكست عليها الأضواء.

على الفراش ولا يدرون ما دائي!

لي كلب مريض.. طريح الفراش.. وفي نظراته ضعف واستسلام، فهو لا يعرف ما أصابه ولا يدري ما علاجه. وهو مستسلم تمامًا. ولكن لا بد أنه يراني حريصًا على علاجه أنتقل به من طبيب إلى طبيب. ولكن نظرته الحزينة المقهورة هي التي توجعني.

وأنا أيضًا مريض.. طريح الفراش. ولكن أعرف ما عندي. وأكذب وأصدق ما يقوله الأطباء. ولا حيلة لي. ولا حول ولا صول ولا قوة. هم يقولون. وأنا لا أملك إلا السمع والطاعة..

ولا أريد أن يموت كلبي. فقد مات لي كلب من قبل.. وحزنت عليه وعلى نفسي أيضًا. وعلى أنني أرتبط به وكيف لا أفعل بمن يحبني وأحبه. وأدعوه ويستجيب ويتمدد أمامي وإلى جواري. مخلصًا صادقًا. فالكلاب لم تتعلم الكذب بعد من معاشرتها للإنسان.

والكلب أحسن حالاً؛ فهو إذا مات فسوف أحزن عليه كثيرًا.. أحزن على صديق كان ثم لم يعد.. على الذي يمشي ورائي وينام تحت قدمي وينتظرني بعد الطعام والشراب أن أسمح له بأن ينام وأن يصحو.. شيء واحد يغيظني من كلبي وأكاد أحسده عليه.. فهو أينما وضع

رأسه جاء النوم عميقًا.. ولو استطعت لفعلت مثله.. فهو يضع رأسه على جزمتى وينام.. ويضع رأسه عند قدمي وينام وأمام مكتبي وينام ليلاً ونهارًا، كيف؟.. إنها حكمة الله. إنها نعمة الله أعطاها للكلاب وحرم منها البشر، ويتمدد كلبي على الفراش أمامي.. وأذكر قول الشاعر القديم:

يا ويح قومي أبلى بين أعينهم

على الفراش ولا يدرون ما دائي

وقال أمير الشعراء شوقي:

يا ويح قومي أبلى بين أعينهم

ويدرج الموت في جسمي وأعضائي

وينظرون لجسم لا حراك به

على الفراش ولا يدرون ما دائي!

فإذا مات حزنت عليه.. ولكن إذا مت أنا فلا أحد يحزن عليَّ.. فقد مات أبي وأمي وكل إخوتي وأكثر أصدقائي وأساتذتي ولا أريد أن أموت قبله فيحزن هو علي، فأنا لا أطيق عذابه من بعدي!

حال الدنيا

بدلاً من أن يركب الأتوبيس سار على قدميه.. وتحركت شفتاه بشيء، وبدلاً من أن يمشي على الرصيف.. اختار أن يمشي في الشارع، وراحت السيارات تطارده بالكلاكسات.. والشتائم تنهال عليه من نوافذ السيارات، ولكنه مشغول عن هذا كله بشيء في داخله: كيف حدث ما حدث في البيت؟ هل هان أمره لهذه الدرجة على زوجته؟ لقد شتمته أمام أولاده.. لهذه الدرجة؟

ولا تزال السيارات تطارده كأنه يريد من الكلاكسات أن توقظه.. أن تنتشله.. فهو غارق في هدومه. في نصف هدومه. لقد حدث ما حدث ولن يعود إلى البيت. وهو يشعر بالأمان في الشارع الآن، فهو ليس بين جدران أربعة: لا أحد يكلمه. لا أحد يشتمه.. لا أولاد ينظرون إليه بإشفاق أو باستنكار أو باحتقار.. لا أحد ينظر إليه من المارة.. إنه بالنسبة لكل المارة: لا أحد: لا هو أب ولا زوج، ولا هو إنسان.. كان شيئًا فأصبح فجأة لا شيء..

ليس في الشارع أبواب ولا نوافذ ولا جدران، إنه ليس في حاجة إلى أن يقفل الباب برفق حتى لا يسمعه أحد. إنه ليس في حاجة إلى أن يتظاهر بالمرح وهو حزين.. إنه حزين حزين وفي استطاعته أن

يبدو حزينًا وأن يشكو وأن يبكي.. فقد يكون لبكائه أي سبب فلن يسأله أحد عن شيء.. فلا أحد في الشارع، فالناس ينطلقون كالسيارات. كل سيارة في حالها.. وكل إنسان في حاله، وهو ككل الناس وككل السيارات في حاله، وفي استطاعته أن يضحك وأن يرقص.. ففي الشارع قد اكتسب حريته واكتسب كرامته.

وعند إشارة المرور رأى أناسًا يتشاجرون. لقد امتدت الأيدي من السيارات المجاورة، إن أحدًا يشتم أحدًا وفي سيارة!

وفي إحدى السيارات أطفال يسمعون هذه الشتائم.. لقد كان ذلك اكتشافًا عجيبًا! فلا فرق بين البيوت والسيارات، وربما كانت السيارات بيوتًا على عجل أكثر حركة وأكثر انتقالاً من شارع إلى شارع.

وجلس على أحد المقاهي، واتجه إلى مراقبة السيارات.. ووقفت أمامه سيارة كبيرة لامعة.. ولابد أنها دافئة من الداخل، فالدفء أحمر على خدود من فيها.. وانفتح شباك السيارة لتضع إحدى السيدات يدها على خدها مفاجأة: سيدة تركب سيارة فخمة وتضع يدها على خدها كما يفعل هو تمامًا!!

فعاد إلى البيت، وانفتح الباب ودخل وجلس ويده على خده وراح يغني. فهذه إذن حال الدنيا.. وما دام هناك خدود فسوف تستند إلى الأيدي.. وسوف تكون هناك نوافذ ينظر منها الناس.. نوافذ في سيارة أو في البيت أو في الشارع؛ لأنه من الطبيعي أن يهون أمرك على أقرب الناس إليك!

أول طالب زوغ في العالم!

تحت هذا العنوان نشرت مجلة إيطالية أن أحد العلماء قد عثر على مخطوطة قديمة، هي عبارة عن رسالة بعث بها أب إلى ابنه.. والأب يعيب على الابن أنه لا يذهب إلى المدرسة بانتظام، وأن أساتذته يشهدون بذلك، وأنهم قد ظنوا في أول الأمر أنه مشغول بإعداد قصيدة طويلة ولكنهم لم يسمعوا من هذه القصيدة بيتًا واحدًا.. ويقول الأب إنه صديق الأساتذة، ولا يرى أن نظم الشعر يشغل الإنسان عن دراسة الرياضيات والموسيقي والفلسفة.. ولا ينسى الأب أن ينبه ابنه إلى أن الشعر - خصوصًا الشعر - لا يفتح بيتًا ولا يكسو عريانًا، ولا يطعم جائعًا، وأن الذين اختاروا أن يضيعوا أوقاتهم في وزن الكلمات قد هربوا من العمل المفيد - إنهم اختاروا أن يكونوا فقراء شرفاء.. ولكنهم فقراء..

وهذا الخطاب يرجع إلى القرن الرابع الميلادي..

ولكن د. مصطفى العبادي اكتشف ورقة بردي ترجع إلى القرن الثاني الميلادي، وعليها رسالة بعث بها طالب في جامعة الإسكندرية اسمه «نيل» إلى والده في مدينة البهنسا.. وفي هذه الرسالة يشكو الطالب من ارتفاع أسعار المعيشة ومن أزمة السكن..

وأنه لا يزوغ من الجامعة، وإنما الدراسة الجامعية لا تعجبه.. وأنه لا داعي لإنفاق الأموال الكثيرة في الدروس الخصوصية؛ لأن الأساتذة الذين يدرسون في الجامعة هم أنفسهم الذين يدرسون له خارج الجامعة.. وأن مستواهم جميعًا ضعيف.. وأنه يشكر والده على الأموال والأطعمة التي بعث بها، وأنه يطلب المزيد..

ويجيء في خطاب الطالب أيضًا أنه يعتذر عن كسر عربته التي يجرها حصانان؛ لأنه قد اشترك في سباق مع زملائه.. وهذا يدلنا على أن الطالب من أسرة غنية..

إنها هي إذن نفس المشكلة القديمة.. فمنذ كانت هناك مدرسة، كان هناك تزويغ من المدرسة ومن الدراسة.. ومنذ كان هناك تلامذة كانت هناك الشكوى من المدرسين.. وكان الرسوب في الامتحان لا بسبب عدم المذاكرة، ولكن بسبب ضعف مستوى الأساتذة وأزمة المساكن وإغراء اللعب!

إنها المشكلة القديمة: حديث يكون هناك واجب، يكون الإهمال في أداء الواجب، والهرب من الواجب.. والهرب من حمل المسئولية.. وهذا قديم.. أقدم من مخطوطة روما.. وأقدم من أوراق بردي الإسكندرية!

اليد اليسرى ليست مأساة!

لسبب غير معروف كان الإنسان الأول في العصر الحجري يستخدم يده اليسرى بدلاً من اليمنى.

ومن المعلوم أن خمسة في المائة من الناس يستخدمون اليد اليسرى في الكتابة وفي العمل أيضًا.. وكان الناس يظنون فيما مضى أن الشياطين فقط هي التي تستخدم اليد اليسرى.. لا لشيء إلا لأن الشياطين يجب أن يكون لها أسلوب مختلف في كل شيء.. فلها عين واحدة في منتصف الرأس، ولها أسنان من نار، ولها ذيل كالثعبان، ولها أنفاس كالدخان، ولها آذان كالحمار.. إنها كائنات عجيبة في كل شيء!

ومن الملاحظ أيضًا أن الطفل يستخدم يديه معًا.. ويتعلم بعد ذلك أن يستخدم اليد اليمنى.. وبعض الأطفال قد أصروا - لسبب غير معروف - على استخدام اليد اليسرى.. وفشلت كل محاولة لأن يستخدموا اليد اليمنى.

ولكن الذي يكتب بيده اليمنى، والذي يكتب بيده اليسرى لا بد أن يهرش الجانب الأيسر من الرأس أيضًا.. وأول من اهتدى إلى هذه

الحقيقة هو أشهر عبقري كان يرسم ويكتب بيده اليسرى: دافنشي، وهو الرسام المثال الفيلسوف المهندس الطبيب الموسيقار المخترع العبقري في كل شيء!

وبرنارد شو كان يكتب بيده اليسرى أيضًا، وكان يقال عنه إنه يساري من أصابع رجليه حتى أصابع يديه.. وكان يقول هو: بل يساري بعد ذلك أيضًا!

والفيلسوف بنيامين فرانكلين كان يكتب بيده اليسرى أيضًا.. وكان يقول: إنني أحتفظ بيدي اليمنى لاستقبال الناس في أثناء العمل! وشارلي شابلن أيضًا.. والملاكمان : تيريل وميلدنبرجر.. ولاعب التنس: دورين.. وهناك فِرَقٌ للملاكمة كل أفرادها يستخدمون اليد اليسرى.. وهي فرق محيرة وتبعث على ارتباك الخصوم وغالبًا تفوز في المباريات الدولية!

ولذلك لا أرى مسوغًا لفزع المواطن المصري والد الأبناء الثلاثة الذين يكتبون باليد اليسرى، ولا داعي - أبدًا - لأن يقسو على أبنائه، ويرغمهم على تناول الطعام باليد اليمنى.. فيتساقط الطعام والدموع معًا.. ويتمزق قلبه حسرة عليهم!

فالفنان العظيم اليتيم اللقيط دافنشي كانت يده اليسرى تساوي كل الأيدي اليمنى واليسرى في كل عصره، ولم تكن مأساته الحقيقية هي أنه يكتب باليسرى على خلاف الناس.. وإنما لأنه ابن غير شرعي ولم يجد من يضربه على يده اليسرى ويبكي عليه بعد ذلك!

الكاتب لا يهمه إلا أن يكتب!

إنني أتساءل كثيرًا: هل يشغل المؤلف نفسه بالذين يسرقون كتبه من بعده؟ هل يفكر في القراء الذين سيقبلون كتبه بعد أن يتحول إلى تراب؟ هل يهتم الكاتب بمستقبل أفكاره أو بوجوده في المستقبل؟

إن الكاتب يريد لأعماله أن تبقى، وأن يستمتع ببقاء أفكاره وهو ما يزال حيًا.. فبقاء أفكاره وانتشارها بقاء له وانتشار لوجوده وأثره في الناس وعلى الناس.. وهو ولا شك حريص على أن يكون له وجود وأن يكون هذا الوجود محترمًا قويًا أو محبوبًا؛ لأنه من الممكن أن يكون الكاتب قويًا ولكن ليس محبوبًا.. ومن الممكن أن يكون محبوبًا ولكن ليس محترمًا.. والذي يرضي الكاتب أو المؤلف عمومًا هو أن يكون له الوجود الكريم.

ويسعد المؤلف أحيانًا أن يتخيل أنه سوف يكون موجودًا فترة طويلة.. وأن أحدًا لن ينساه وهو ما يزال حيًا.. لأن نسيان الناس له وهو حي نوع من التعجيل بالوفاة. وهذا النسيان يفزع الكاتب، لأن معناه أن الناس قد نسوه وهو حي، وأنهم سوف ينسونه تمامًا بعد أن يموت.

والكاتب - كأي كائن حي - يفكر في الموت أيضًا. والموت قضية تشغله ما دام حيًا.. فهو لا يريد أن يميته الناس.. ولو اختار الكاتب بين أن يميته الناس وبين أن يميت هو نفسه لاختار الانتحار.. ولا يزال الانتحار أكرم على نفس المؤلف من أن يدفنه القراء حيًا..

ولكن بعد أن يموت الكاتب فإن أعماله الأدبية تصبح في أيدي غيره من الناس.. سواء كان الناس هم الورثة أو هم القراء.. وطبعًا لا يهم الكاتب الميت أن يدوس القراء كتبه أو يحرق الورثة جثته.. لقد مات الكاتب.. قال ما عنده ومات.. ولو عرف المؤلفون كل ما يفعله القراء بهم، وما يفعله الورثة بمؤلفاتهم، لأصابهم حزن ويأس وربما انتحروا.. ولكن لو أعيد المؤلفون إلى الحياة وهم يعرفون هذه النتائج مقدمًا.. فهل يقلعون عن الكتابة والتأليف؟ هل تجيش نفوسهم بالأفكار والمعاني والصور ثم لا يكتبون؟ إنني أشك كثيرًا.. فالكاتب كالشمس يضيء ولا يملك إلا أن يضيء.. ولا يضايقه إن كان الذي يمشي في ضوئه برغوثًا أم فيلا.. وإن كان الناس يسدون في وجهه النوافذ ويقاومونه بالأسبرين وطواقي الثلج أو بالهرب إلى مياه البحر.. كل هذا لا يهم، لأنه لا يملك إلا أن يكتب.. ولا يملك إلا حياته.. أما ما بعد حياته فليس ملكًا له.. ولذلك فالكاتب يكتب، ويعلم مقدمًا ما سوف يحدث له.. فهذه سنة الحياة: أن يساهم في بناء الحاضر، ويساهم بجسمه في ملء قبور المستقبل!

أنواع من الناس

هناك ثلاثة أنواع من الناس: واحد يريد أن يعيش.. وواحد يريد أن يستفيد، وواحد يريد أن يفيد!

والذي يعيش فقط هو مثل النباتات والحيوانات، لا يسأل نفسه ما معنى هذه الحياة؟.. إنه يريد أن يأكل ويشرب وينام وفي أثناء النوم يجيء الأطفال ويتقدم في السن ويموت، وهذا النوع من الناس ليست له مشكلة.. ولذلك فهو لا يقرأ ولا تهمه القراءة ولا يهمه أن يفكر فيه أحد، لأنه لا يفكر في أحد، ولهذا السبب سأكتفي بهذا الكلام عنه!

أما الذي يريد أن يستفيد من الحياة فهو ينظر إليها على أنها صفقة تجارية، وهو يصحو وينام على سؤال واحد: ما الذي كسبته اليوم؟ ومن أجل المكسب فإنه يدوس الناس والقيم الإنسانية، فمثله الأعلى هو النجاح.. النجاح بأي ثمن، ولكي يحقق النجاح ينافس الآخرين.. وعندما ينافسهم يكرههم ويحقد عليهم.. والحقد يدفعه إلى الجريمة.. والجريمة تكبر فتصبح حربًا.. تشنها دولة على دولة.. دولة تريد أن تبيع بالقوة وتكسب بالقوة.. ومن أجل المكسب تحرق الزرع وتطحن الحيوانات.. وتدفن الناس.. وحيث توجد التجارة الجشعة توجد الطبقات.. والحقد الطبقي.. والاحتكارات والاستغلال

والانهيارات العصبية.. والصفحات السوداء في تاريخ الإنسانية كتبها التجار بدماء الزبائن وبدماء المستهلكين!

والنوع الثالث هو الذي يسأل نفسه دائمًا: ما الذي أستطيع أن أضيفه لحياة الناس؟.. ما الذي أستطيع أن أعطيه؟ إنه فنان يتذوق الحياة ويفهم معناها ويحرص على أن يقدم للناس شيئًا، يجعل لحياتهم معنى.. ويجعل للمعنى هدفًا.. ويجعل الطريق إلى الهدف مفروشًا بالحب والسلام والتعاون بين الناس، يعطي راحته.. ويبذل حياته.. وكل الذين ساهموا في إسعاد الإنسانية لا يمكن أن يكونوا تجارًا للحياة.. ولا يمكن أن يكون الاستغلال أسلوبهم.. ولا النجاح بالدماء شعارهم من أجل إسعاد البشرية!

وإذا كانت السعادة هي الغاية التي يريدها كل إنسان.. فإن أحدًا لا يعرف – بالضبط – ماذا تعنيه كلمة السعادة. إنها مثل الصحة نحسها ولا نعرف ما هي، إنها مثل الكهرباء نعرفها ولا نراها، فالسعادة ليست برتقالة نقطفها ونقشرها ونأكلها بعد ذلك.. إنها مجموعة أشياء كثيرة معًا..

وإذا بحثنا عن السعداء نجد أنهم هؤلاء الذين يغرسون شجرة ويبنون بيتًا ويؤلفون قصيدة.. هؤلاء الذين يملأون وقتهم بالعمل المفيد.. فالسعادة هي أن يجد الإنسان نفسه مشغولا بشيء مفيد.. وأن يجد هذا الانشغال لذيذًا!

وجهة النظر الأخرى ضرورة!

إنني أمقت هذه المناقشات التي بين الأدباء والفنانين والنقاد والتي تنتهي بأن يقول أديب هذه العبارة المغرورة السخيفة: مثل هذا الكاتب يجب أن تمنعوه من الكتابة!

فلمن يقولها؟

إنه يطلب - طبعًا - من الدولة أن تمنع أديبًا من أن يقول رأيًا.. وجهة نظر.. لماذا؟ لأن هذا الأديب يختلف معه في الرأي.. له وجهة نظر أخرى لا تعجبه! أليس من المفروض أن تكون هناك وجهة نظر أخرى؟ أليس من المفروض أن تكون هناك وجهات نظر؟ وما دامت هناك وجهات فلماذا لا تكون هناك نظرات ونظريات؟ وما دامت هناك نظرات، فلماذا لا تكون هناك وجهات وجيهة؟ لماذا تكون هناك وجهة واحدة ونظرة واحدة هي التي يختارها هذا الأديب الذي يطالب بمنع من يخالفه في الرأي؟!

إنني أرى مثل هذا الأديب مغالطًا.. لأنه لا يرى إلا نفسه.. وإلا رأيه. وهو مغرور، لأنه يتصور أن نظرته نظرية.. ونظرية وحيدة..

وهذا الأديب مضلل لأنه عندما يرفع نبرته في النقاش يوهم القراء بأنه أديب وحيد وبأنه سلطة.. وهو بذلك يصبح أديبًا إرهابيًا

يرفع صوته ليخيف، كأن التخويف يقضي على الفكر. وكأن ظهور رأي واحد صارخ معناه أنه لا توجد آراء أخرى.

إن مثل هذا الأسلوب هو الذي يجب أن يناقش، وأن يناقش كثيرًا، لأنه ظاهرة خطرة، وظاهرة مريضة متوحشة وهمجية، فهو يدعو إلى الإرهاب الفكري، أو الإرهاب الذي يقضي على الفكر، أو الإرهاب بلا فكر!

ومثل هذا النوع من الأدباء يحلم بأن يكون سلطة، فإذا كانت له سلطة قضى على كل من يخالفه في الوجهة والنظرة، ومع أنه إذا كان يريد لنظرته أن تعيش وأن تنتشر، فالمناقشة تحييها، وإطلاق الأضواء الكثيرة عليها وحولها ينعشها.. ويضيء بها.. ويضيء لها.. وليس إلقاء الضوء كإلقاء النار، أو كإلقائها في النار.

فاختلاف الرأي لا يضر. وتعدد وجهات النظر شيء مفيد.. ولا يصبح الرأي قويًا إذا انعدمت الآراء الأخرى.. ولا تصبح وجهة النظر سليمة، إذا تلاشت كل الوجهات والعيون.. وإنما الرأي القوي هو الذي يكون قويًا رغم وجود آراء أخرى.. أو ربما بسبب وجود آراء أخرى!

الملاعب والشوارع!

اللهم لا اعتراض على الكرة ولعب الكرة والاهتمام بها.. ولا اعتراض على أن الكرة قد أدت إلى الاهتمام بالأقاليم وأبناء الأقاليم، والناس الطيبين الذين لم تسعفهم الظروف بأن يولدوا في القاهرة، ويكونوا من أبناء أعضاء أندية الأهلي والزمالك والترسانة.

ولا اعتراض على أن يتعلم الناس الطاعة والنظام وحب القانون واحترام الحكام، في أثناء اللعب وفي أثناء مشاهدة المباريات.

ولا يمكن أن يكون هناك اعتراض على أن يتعلم اللاعب من خلال التمرين والحرص على اللياقة: أن يعنى بصحته الجسمية والنفسية..

وطبعًا لا اعتراض على أن تلتقط الكرة عددًا كبيرًا من الكتاب والنقاد والفنانين الذين يحولون مباريات كرة القدم إلى أعمال أدبية ممتعة، وإلى أن تصبح الكتابة الكروية والرياضية عمومًا ذات أسلوب خاص ولها تعبيرات جديدة سريعة..

إن كرة القدم قد أكسبت الناس لاعبين ومتفرجين وكتابًا : دماء جديدة ومعارك غريبة، مثيرة..

لا اعتراض على شيء من هذا كله.. ولكني أعترض على أن تتحول شوارع القاهرة إلى ملاعب لكرة القدم، والشوارع - كأية ملاعب - فيها خطوط للملعب.. وبدلا من خشبات المرمى، تمتلئ الشوارع بالطوب والزلط.. ولأن اللعب يجري ليلا، فالطوب يجب أن يكون عاليًا بارزًا، ولأن كرة القدم تستغرق اللاعبين الصغار، فإنهم لا يدرون بالسيارات من ورائهم وأمامهم، ولذلك كثيرًا ما توقفت السيارات حتى تتفادى اللاعبين الذين استغرقتهم الرياضة الشعبية.. وكثيرًا ما عجزنا عن تفادي اللاعبين.. وهؤلاء اللاعبون الشباب لا يحملون معهم كل ليلة معالم الملعب.. ولذلك يتركون الطوب والزلط في مكانه وهذا الطوب لا يتحرك طبعًا.. وإنما تتحرك إليه السيارات وتتكسر بسببه.. فالطوب هو الكرة العتيقة التي يجري إليها الهدف كل يوم وكل ليلة!

ومن الغريب جدًا أن نجد ملاعب كرة منصوبة ليلاً ونهارًا في معظم الشوارع.

إننا يجب أن نعدل بين الشوارع والملاعب! فالكرة للملاعب، والمرور للشوارع!

جريمة المتاعب العائلية!

ربما كانت كوارث الحروب والأوبئة هي التي جعلتنا نستهين بكوارث السيارات.. فنحن الآن نرى أن الحروب شر يهون إلى جواره أي شر آخر.. ولو كان هذا الشر الآخر هو حوادث السيارات، مع أن الذين يموتون تحت عجلات السيارات أكثر من ضحايا الحروب!

وأول حادث قطار في العالم كله كان سنة 1830 عندما داس القطار رجلاً كان يعمل نقيبًا لعمال الشحن.. وعلى أثر حادث القطار هذا أقيمت أرصفة للمحطات.. ولكن حوادث السيارات لم تؤد إلى مثل هذا الإصلاح السريع، فما تزال الشوارع التي تنطلق فيها السيارات ضيقة مخنوقة لأنها كانت خاصة بعربات الكارو والخيول!

وبما أن الإنسان حيوان اجتماعي، فالسائق أيضًا حيوان اجتماعي، والمشاة حيوانات اجتماعية.. وإصراري على استخدام كلمة «الحيوان» هنا: أنها صفة يطلقها السائقون على المشاة، ويرد بها المشاة على السائقين! ولا شك أن المتاعب في البيت أو العمل لها أثرها على السائق وعلى المشاة أيضًا.. فالمتزوجون أقل حوادث من العزاب.. والمطلقون أكثر حوادث من الجميع.. والمرأة أقل حوادث من الرجل، وأكثر السائقين تعبًا هم سائقو التاكسيات واللوريات..

فالسيارة بالنسبة لهم ليست مكانًا للنزهة.. وإنما هي دكان متحرك.. ورشة.. هي «الشغل» الذي يقصده عندما يجيب عن سؤال: إلى أين؟ فيقول إلى الشغل.. ولكن من المؤكد أن الحالة النفسية والاجتماعية والجسمية والصحية للسائق أو الماشي هي العامل الرئيسي في هذا الحادث الأليم.. ولابد أن السائق الذي رفع رجله عن الفرامل بدلا من أن يضغط عليها.. قد تعب في البيت من ضغط أعصابه.. تعب من ضغطه على فرامل أعصابه.. وفجأة رفع رجله عن الفرامل في البيت وثار وشتم وطفش.. وعندما ركب السيارة رفع - لا شعوريًا - رجله عن الفرامل.. تمامًا كما فعل في البيت.. وكل الناس الذين في الشارع قد جاءوا من بيت أو بيوت!

من المؤكد أن المتاعب العائلية تنعكس في «الشغل» فيموت بسببها أناس في الطريق.. فالسيارة مسدس في يد السائق، ولكن الرصاص قد تمت تعبئته في مكان آخر!

الحمار وهو والكلب وأنا!

أستاذنا توفيق الحكيم عنده عشرات المقالات تحت عنوان «حماري قال لي» أو «أنا وحماري». واختار الحمار لأنه حيوان طيب.. ولأننا نرى الحمار هو الحد الأدنى للفهم. وإذا تحدث مع الحمار وكان كلامه معقولا فمعنى ذلك أنه يفهم أحسن من بني آدم. وقالوا: الحكيم سرق فكرة الحمار من الأديب الإسباني خمينيز الفائز بجائزة نوبل في الأدب سنة 1956، فله كتاب جميل جدًا اسمه «بلاتيرو وأنا» وبلاتيرو صفة للحمار.. أي الحمار ذو اللون الفضي.. ومن المؤكد أن بلاتيرو من أجمل وأرق ما كتب أديب إسباني..

ويبدو أنني سأمشي في نفس الطريق.. وبدلا من الحمار الفضي أو الأسود سوف أختار صديقًا هو كلبي. وكلبي اسمه «ريكو» والاسم ياباني، لأن الكلب ياباني أيضًا ومن فصيلة اسمها «تشو». وعلى شبكة الإنترنت وجدت تشو هذا هو الكلب الوحيد في العالم الذي له لثة سوداء، وهي مقياس للأصالة. فالكلاب من فصيلة تشو هي التي لها هذه الخاصية.

وهذا الكلب أبيض وله بقع سوداء على العين وجانب من الجسم تمامًا مثل حيوان «الباندا» الصينية.. وحيوان الباندا نباتي مثلي

ويـأكل أعـواد الخيـزران الخضـراء علـى قـمـم الجبـال.. وريكو من ألذ الأطعمة اليابانية.. يعني أنا تسببت في إطالة عمره ولو تركته في اليابان لكان في المجاري من خمس سنوات.. ولا أدعي أن هذا فضل مني عليه.. وإنما طال عمره لأنني أريده حيًا.. أريده ظلاً.. لعبة.. صورة عابرة من صور الحب الساذج والوفاء الغريزي وبس..

ولست مقلدًا في ذلك أستاذنا العقاد. فالعقاد كان له كلب اسمه «بيجو» ومات. وللعقاد قصيدة يرثي فيها بيجو يقول فيها: «مرحاضه أعز أثوابنا» أي أنه يتبول على الملابس. ووقعت عينا الأديب مصطفي صادق الرافعي على هذا التعبير فأطلق على العقاد اسم «الشاعر المراحيضي» – وكان أسلوب الرافعي خشنًا.

وبدأت أكتب الصفحات الأولى من كتاب بعنوان «ريكو وداعًا» أنا أودعه أو هو يودعني – هاو هاو– صوت الكلب وكأنه يعلق على هذا الذي أقول!

أن تكون فرنسيًا صميمًا!

الرئيس الفرنسي ميتران رجل مائة في المائة وفرنسي صميم - فله زوجة واحدة ولا أحد يعرف كم عدد العشيقات وكلهن تحدثن بعد وفاته: المطربة داليدا وقارئة الكف وراقصة الباليه وست البيت والمليونيرة - وقد أجمعن على أن ميتران ساحر لا يقاوم.

وننظر إلى وجه ميتران الصلب الجامد كأنه تمثال من الصلب ولا تجد فيه الرقة والقوة الباهرة لأية امرأة. إذن هو ساحر العبارة والأداء، وكتبه ومقالاته في النقد تؤكد هذه المعاني.. أنا لا أنسى وقد أحسست بالفخر عندما رأيت الرئيس ميتران في أسوان يكتب خطابه أمامنا جميعًا.. لأنه كاتب.. وهذا هو الذي دعاني إلى الفخر.. وقد شطب سطورًا وأتى بغيرها.. وألقى خطابًا جميلاً بليغًا شهدنا مولده كلمة كلمة! إذن هذا هو البيان. وإن من البيان لسحرًا.. ثم كانت له عشيقة. والعشيقة في القصر الرياسي ولها ابنة. والكل يعرف ذلك.. زوجته وأولاده والصحف. ولكن أحدًا لم يقل شيئًا.. فهذه حرية شخصية. وقبل وفاته قدم ابنته للصحافة. ومنحها كل حقوقها.. وقدمها لزوجته وأولاده وتظاهروا بأنهم لم يكونوا يعرفون. احترامًا لحريته!

وقد حاول الرئيس الفرنسي ساركوزي أن يكون فرنسيًا له أكثر من عشيقة. ولكن الزوجة سيسليا له ولد منها وأربع بنات من زيجات سابقة رفضت الحياة معه وهربت مع صديق لها. ثم عادت لتقيم أيامًا في القصر الرئاسي وأن تكون السَّيدة الأولى. لكنها لم تطق صبرًا على أن تكون المرأة الثانية أو الثالثة. وقد نشرت المجلات الفرنسية صورها وهي شبه عارية مع زوجها المذيع التلفزيوني.

وإذا لم يستطع الرئيس ساركوزي أن يكون مثل ميتران ففي استطاعته أن يكون مثل شيراك: زوجة وعشيقة.. وفي هذه الحالة فمن الظلم أن يسأل زوجته إن كان لها هي أيضًا عشيق!

إما دافنشي وإما بودلير!

أشهر قصة في العصر الحديث هي قصة الطفل «هاري بوتر». إنه طفل يتيم ينام تحت السلم ويلقى معاملة خشنة من أقاربه. وطبيعي أن يحلم بالمعجزة وجاءت المعجزة ليكون ساحرًا يعيش في عالم مسحور.

إنه المحروم الذي يحلم بما لا يجد.. فلم يجد أمًّا ولا أبًا.. ولعله كره الأم والأب والأسرة. ومعه حق..

وأقرب حياة لذلك حياة العبقري ليوناردو دافنشي. أنجبته أمه من محام لم يشأ أن يعترف به. فما كان من الأم إلا أن تركته للأب وزوجة الأب. وطبيعي أن يكره دافنشي المرأة وكل النساء. وكان دافنشي أكبر من عصره: فهو شاعر وموسيقار ورسام ومخترع وفيلسوف. هل كراهية الأم هي التي جعلته يحب أبناء جنسه. وقد استدعاه البوليس أكثر من مرة ليفسر سر الشبان الذين ينامون معه في غرفة واحدة وفي فراش واحد.. وسر الملابس المزركشة والمشخلعة التي يرتديها. ولم تثبت إدانته.. وإن كانت الظروف وكل أفكاره تدينه..

ومثله كان الفيلسوف الألماني شوبنهور عدو المرأة والذي كان يمقت أمه.. وفي إحدى المرات دفعته أمه ليقع في السلالم فقال لها: سوف تعيشين وتموتين واسمك أم شوبنهور!

وهذا ما حدث..

وكذلك الشاعر الفرنسي بودلير، فقد كره كل النساء مكتفيًا بحبه لأمه وحبها له..

إذن الذي يحب أمه كثيرًا يكره كل النساء. ويحب أن تكون العلاقة مع المرأة كالتي مع أمه، فإذا اضطر إلى علاقة سوية كرهها.. والذي يكره أمه يكره كل النساء أيضًا.

وقد انتهت قصة هاري بوتر بأجزائها الخمسة، من دون أن يظهر للشاب هاري بوتر شعور واضح نحو الجنس الآخر.. ولو أكملت الأديبة رولنج هذه الملحمة لوجدنا دافنشي آخر..

فالناس إما بودلير المحب لأمه وكاره لكل النساء، وإما دافنشي الكاره لأمه وكل الناس.. أما الذي يحب أمه ومن أجلها يحب كل النساء فلم نعرفه بعد!

الفار السوبر هو أبو البشرية

من أساطير الأولين أن الأسد وقع في شرك ولم يفلح في الإفلات منه.. فجاء فأر صغير وراح يقطع الحبال بأسنانه، وتحرر الأسد، أما المعنى فهو: لا أحد قوي جدًّا ولا أحد ضعيفٌ جدًّا، ولا يغرنك الأسد ولا تستهن بالفأر!

ومن الأساطير أيضًا أن فيلسوفنا الفارابي هو الذي جعل لآلة العود تجويفًا، هذا التجويف هو الذي كان سببًا في الرنين وعمق الأنغام، ولما سئل كيف تسنى له ذلك قال: الفأر هو الذي علمني، فهو راح يقرض الخشب فكان هذا التجويف..

فهو الذي قال : الفار أبي.. أي الفارابي! والعلم الحديث أعلن أخيرًا أن العلماء قاموا بتخليق فأر سوبر.. يستطيع أن يجري ساعات دون أن يلهث وأن له قوة جنسية فائقة، ثم إنه أطول عمرًا من الفأر العادي، وإنه مهما أكل وشرب فإن وزنه لا يزيد، وهذا أهم خبر لكل طلاب الرشاقة والجمال والفحولة أيضًا..

ويقول العلماء إن هدفهم لم يكن رشاقة المرأة وفحولة الرجل وإنما كانوا يبحثون عن سلوك نوعيات من الفئران ويدرسون

الأحماض والأنزيمات وينبهون إلى أن أية محاولة للتقليد هي مغامرة لا يصح التعرض لها من قريب أو من بعيد.. ولكن لابد أنهم بعد سنوات سوف يجدون حلولاً لطالبي الجمال والجوع الجنسي..

وإذا كان الفأر أبًا للفارابي، فإن هذا الفأر السوبر أب للبشرية غدًا وبعد غد!

حرسوه هناك وقتلوه هنا!

نزلت في نفس الفندق الذي نزل فيه الرئيس السادات في لندن. ولاحظت أنه لا توجد حراسة كافية. فقط واحدة ضابطة حلوة صارمة واقفة على الباب واقتربت منها أسألها.. فضحكت وقالت: نحن نعرف واجبنا. والتفت حولي فلم أجد سواها، ولم أفهم.

وذهبت إلى أحد موظفي الفندق وسألته كيف لا تكون هناك حراسة مشددة على الرئيس، فقال ما معناه: هناك ولكنني لا أراها.. وتلفت في كل مكان. فوجدت أن كل شيء عادي تمامًا.. حتى المطعم والمقهى. ووجدت شبانًا صغارًا وبنات بالبنطلون الجينز يشربون ويضحكون كأنه لا توجد شخصية مهمة في الفندق..

وفي كل مرة أذهب لأعطي مفتاح غرفتي أجد مدنيين أيضًا يفعلون نفس الشيء.. وسألت مرة ثالثة ورابعة. وأخيرًا سألني أحد الموظفين: متى تسافرون؟ فقلت غدًا.

فقال: غدًا سوف أقول لك..

ولم أعرف إن كان جادًا أو أنه تخلص من الموقف وفي اليوم التالى لن أجده. ولكن في نفس الوقت فأنا على يقين من وجود حراسة شديدة بشكل ما.. أما الشكل فلا أعرفه..

وكنت أول من أنزل حقائبه.. وبعد أن غادر الرئيس الفندق سألته. فقال: كل من تقع عليه عيناك هم من البوليس، الذين يأكلون والذين يشربون والذين يرقصون حتى الغرف المجاورة لكم بها نزلاء من رجال الأمن والمخابرات.

وأكثر من ذلك أيضًا: محطة البنزين المجاورة يديرها رجال أمن. وبعد مغادرة السادات فسوف تجد العمال والموظفين العاديين في محطة البنزين والفندق.. ثم همس في أذني: وأنت بالذات عليك حراسة.. الغرفة التي على يسارك والتي إلى يمينك..

عجبي: حرسوه في لندن وقتلوه في القاهرة!

نحن نحمل المرايا في دنيا العميان!

يقول الصوفي الفارسي السعدي الشيرازي بعد أن خطب في أحد المساجد العربية: تكلمت بطريقة الوعظ مع جماعة منقبضين ميِّتي القلوب؛ فوجدت أن نفسي لا تلتهب وناري لا تؤثر في الحطب الأخضر. فأيقنت من قيامي في تربية البهائم وحملي المرآة في حي العميان!

يا أنا.. ويا كل كاتب وواعظ ومدرس وسياسي وزعيم. إنها صرخة يأس مما نقول وما نفكر وما نتوهم من تأثير لنا في الناس وعلى الناس..

إن الواحد يكتب وينتظر الصدى.. ويفاجأ بأن صداه ليس رجعًا لصوته. وإنما لصوت الآخرين. فأنا أقول وأنت تقول تعليقًا على ما أقول. ويكون التعليق قولاً يحتاج إلى تعليق.. وهذه المسافة بين الكاتب والمستمع والقارئ والمشاهد عميقة كأنها فوق بئر أو أحد جدران كهف أو كل الجدران أو كل كهف..

فما المعنى؟

يقول الشاعر القديم:

كمن يحدو وليس له بعير ... ومن يرعى وليس له سوام

ومن يسقي وقهوته سراب   ومن يدعو وليس له طعام

أو كما يقول المثل الشعبي المصري: كالمؤذن في مالطة..

أي في مكان بعيد لا يسمعه أحد.. أو بين أبناء دين غير دينه.

إلا أن الكاتب والمفكر والشاعر والفنان عنده وهم أنه هو شيء وأنه قال شيئًا وأن الناس في حاجة إليه، وأنه ترك أثرًا كأنه ألقى حجرًا في ماء راكد فاهتز.. أو أنه يدق جرسًا، أو أن مهمته هي إيقاظ الناس، أو كما يقول الفيلسوف الوجودي كيركجور: إن مهمة الفيلسوف هي أن يقض مضجع العقول النائمة والضمائر الميتة.

وكما أن الناس سعداء بأوهامهم فالمفكرون أيضًا!

أمل حياتي: أكون مثل هذه الشجرة!

تمنيت كثيرًا أشياء كثيرة.

ففي يوليو من أربعين عامًا كنت في بغداد. حرارة الجو كانت شديدة. ولا أعرف كيف يتحملها الناس ويقاومونها.. ولما ذهبت إلى النجف وكربلاء وجدت البيوت كهوفًا رطبة. وفي هذا الجو القاتل وجدت جاموسة تحت شجرة. طلبت من السائق أن يقف لأرى معجزة الخلق.. جاموسة نائمة في حر شديد. كيف؟ التقطت لها صورة. واحتفظت بالصورة فحلم حياتي أن أكون نائمًا كالجاموسة أو كأي كائن آخر!

وفي يوم كنت من خمسين عامًا في ولاية كيرلا الهندية. أتجول في الغابات.. عندما رأيت شجرة خضراء يانعة ولها زهور وعليها طيور وقرود.. كأنها تطرح طيورًا وحيوانات أخرى والأمطار تغسلها فتلمع راسخة متينة حية منتعشة، وتمنيت لو كنت هذه الشجرة في جمالها وحيويتها ولا قراءة ولا كتابة ولا هم ولا غم. وتطلعت إلى السماء وقلت: شجرة عليها ثمار ولها ظلال وفي الظلال تعيش سعيدة كل الطيور والقرود والزواحف. أن أكون شجرة يا رب.

ولم أكن أعرف أن الأديب الألماني ايشندورف مؤلف رواية «حائر بائر» قد تمنى في شبابه أن يكون شجرة لها أفرع كالأحضان ليسمع ما يقوله العشاق!

ولا كنت قرأت ما نسب إلى الخليفة أبي بكر رضي الله عنه أنه قال عندما رأي عصفورًا في ظل شجرة. قال: طوبي لك يا طير. تأكل من الشجر وتستظل بالشجر وتطير إلى غير حساب، يا ليت أبا بكر مثلك.

يا ليت. ولكن كيف؟!

قوة.. والمزيد من القوة!

الملوك والرؤساء ينشدون القوة.. قوة السلطة والصحة والعافية وطول العمر حتى لو قالوا وعادوا وزادوا أن القوة لا تهمهم ولا تعنيهم. لأنهم يطلبون من الله الستر؟! وبس!

كنا في جزيرة بريوني اليوغسلافية وقد أقام الرئيس تيتو عشاء للرئيس السادات والوفد المرافق له.. وبدأنا نأكل عندما جاءني سكرتير الرئيس يقول لي: الرئيس عاوزك.. ذهبت. فهمس في أذني: لعلك تلاحظ أن الرئيس تيتو يأكل المكرونة والكافيار والزبدة وكلها مليئة بالكوليسترول ويشرب الفودكا وهو في الثمانين. ابحث لي كيف كل ذلك وهو في صحة جيدة.

- حاضر يا ريس.

وبعد لحظات استدعاني الرئيس وقال: ابحث لي أيضًا حكاية شارلي شابلن.. إنت عارف..

وكانت إحدى شركات الأدوية قد أعلنت أن شارلى شابلن في غاية اللياقة البدنية لأنه يتعاطى منتجاتها.. وعقد شارلي شابلن مؤتمرًا صحفيًا نفى وكذب بشدة أن يكون السبب هو عقاقير هذه الشركة، وإنما حرصه على الرياضة والطعام الصحي!

وعدنا إلى مصر.. وبعدها بأيام سألني الرئيس عن البحث الذي كلفني به فقلت إنني أبحث يا ريس!

والحقيقة أنني لا أعرف كيف أبحث هذا الموضوع. ومضى وقت وظننت الرئيس قد انشغل. ولكن فاجأني ونحن نتمشى: يا أنيس.. عملت إيه في حكاية تيتو وشارلي شابلن؟ وقلت له ما وصلت إليه بعد سؤال الأطباء وما قرأت.. ولا أعرف ما الذي استفاده من البحث..

وكان يشاع عن الملك فاروق أن سر صحته وعافيته هو أنه يشرب كل يوم (بهريز) أي خلاصة عشرين أو ثلاثين زوجًا من الحمام! ولم يكن ذلك إلا تفسيرًا ساذجًا لقدرته كملك وشراهته كشاب!

كان طه حسين أبعدنا نظرًا!

غلطة تقليدية في سياستنا الخارجية. وكان يجب تداركها منذ وقت طويل: أن ننظر إلى السودان على أنه دولة شقيقة مجاورة. والأصح أن نفتح الأبواب والشبابيك بيننا وبين السودان ولا جواز سفر.. لأننا امتداد للسودان والسودان امتداد لنا. والعلاقة حيوية وحياتية أبدية وكان السادات عندما يتكلم عن السودان يقول: أخوالي.. فالسادات تركيبة فريدة: أبوه سوري وأمه سودانية وهو زعيم مصري..

ولا أحد في مصر يسأل أحدًا إن كان صعيديًا أو نوبيًا أو سودانيًا.. وفي السودان نلتقي بالذين أمهاتهم وآباؤهم من المصريين أو الذي نعلمه في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا.

ولي تجربة. فقد أنشأت مجلة اسمها «وادي النيل» وطبيعي كنا نقع في أخطاء من حين إلى حين. وأهم هذه الأخطاء هي أسماء السادة السودانيين.. وللحساسية الشديدة كانوا يرون في ذلك إهمالاً أو استخفافًا أو لا مبالاة. والحقيقة أن بعض هذه الأسماء غير مألوفة. فاخترت لي نائبًا سودانيًا يتولى مراجعة الأسماء أولاً بأول.

وفي يوم كنت في الخرطوم. وقيل لي إن الرئيس نميري مزكوم. وإننا سوف نعانقه ونقبله. وسوف تنتقل لي العدوي فورًا.

فذهب معي إلى الصيدلية لكي آخذ حقنة نوفالجين ـ يوسف السباعي وبعض رؤساء التحرير. وبدلا من أن نبقى دقائق أمضينا ساعات من المتعة والعتاب والامتنان. فقد دخلنا في غرفة خاصة في داخل الصيدلية وإذا بهم يعرفون كل صغيرة وكبيرة في السياسة وفي الفن وفي الأدب. وقد سأل أحدهم: إن كان صحيحًا أن ليلى علوي هي التي تحب فلانا أو هي نبيلة عبيد وإن كانت الراقصة نجوى فؤاد. ولم نعرف الإجابة عن كل هذه الأسئلة..

ومع الأسف لا نزال نعاني من هذا الموقف الذي يجب ألا نقف عنده. إن أستاذنا طه حسين اقترح من خمسين عامًا أن يكون للجامعة كرسي للدراسات السودانية - يرحمه الله لقد كان أبعد وأعمق وأصح نظرًا!

كلمة ولكن من الذي قالها؟!

في المؤتمر الصحافي الذي عقده الرئيس عبد الناصر وصف أنتوني إيدن رئيس وزراء بريطانيا الشريك الثالث في العدوان الثلاثي بأنه رجل (خِرِع) بكسر الخاء والراء. وحارت وكالات الأنباء والصحف الأجنبية في أن تجد مرادفًا لهذه الكلمة. وتفسيرها أنه: رخو وأنه مريض ضعيف. والكلمة مشتقة من شجرة الخروع ذات الزيت الكريه اللزج!

وفي حديث المذيعة التلفزيونية الأمريكية الشهيرة بربارة والترز مع الرئيس السادات سألته عن رأيه في الرئيس كارتر فقال: أعشقه!

ويقصد أنه يحبه كثيرًا أو يحترمه جدًّا..

وحاولنا مع بربارة أن نحذف هذه الكلمة التي قالها السادات بحسن نية، فرفضت. وقالت: سوف ينسى الناس الحديث ولن ينسوا هذه الكلمة. وقد كررها السادات عدة مرات! وفي رسالة حملتها أنا من الرئيس مبارك إلى رئيس إسرائيل إسحاق نافون. قلت له إن الرئيس واضح. وكل أفكاره معلنة وليس لغزًا وقلت الكلمة الإنجليزية بمعني لغز (Quiz) فظهرت الدهشة الشديدة جدًّا على وجه الرئيس

الإسرائيلي وسألني: هل الرئيس قال هذه الكلمة؟ قلت: نعم سألني: هل أنت متأكد من أنه قال على نفسه هذه الكلمة. فأعدت التأكيد.

هو اندهش، وأنا اندهشت لهذه الدهشة..

وبعد سنة قابلت الرئيس الإسرائيلي وقد اكتشفت سر دهشته. فهو قد يظن أن كلمة كويز (Quiz) معناها كويز لنج وهو رئيس الوزراء النرويجي الذي خان بلاده وانضم لألمانيا النازية وحاكموه وأعدموه سنة 1945. لقد ظن أن الرئيس حسني مبارك يقول إنه ليس كويز لنج - أي ليس خائنًا لبلاده!

وهذا شيء عجيب جدًّا لا يقال!

وفي حوار بين خروشوف ونيكسون نقل المترجم عن خروشوف خطأ كلمة (فلاح) وقال (عاطل) ولم يفهم نيكسون فطلب خروشوف أن ينقل المترجم لنيكسون أن المترجم حمار.. فنقل المترجم أنه حمار. وضحك الرجلان.

إنها حكايات كثيرة لكلمة واحدة!

مناقشة على أعلى المستويات السعودية!

حكاية معروفة في السعودية على أعلى المستويات، فأول مرة ذهبت للمشاركة في نشاط الجنادرية، همس الأصدقاء السعوديون: أنتم جئتم وهدمتم الدرعية!

- تقصد من؟

- إبراهيم باشا..

- حدث هذا في منتصف القرن التاسع عشر وكانت مصر تابعة للدولة العثمانية وجيشنا كان من المماليك والأتراك والأتابك.. ولسنا نحن أبناء مصر الحديثة.

وقيل لي هذا أكثر من مرة. ولم أعرف ما هو المقصود. وقلت نيابة عن إبراهيم والسلطان العثماني: هذه غلطة..

ثم ذهبت بالسيارة إلى الدرعية.. ووجدتها صغيرة. ولكنها رمز تاريخي في نشأة المملكة السعودية.

وفي لقاء رفيع المستوى - قال أحد الحاضرين للأمير: يا طويل العمر.. الأخ أنيس يقول إن هدم الدرعية لم يحدث مطلقًا..

وهذا ما لم أقل، ولكنه يداعب، فلم أرد.. ولا بد أن الأمير انشغل بشيء أهم، فالمناقشات ممتعة والمحاورات متعددة، والحاضرون كثيرون، وقضاياهم معاصرة.

وعاد أحد الشبان يقول: يا طويل العمر بعد مناقشة طويلة مع الأخ أنيس هو مُصِر على أن واقعة العدوان على الدرعية من إبراهيم باشا لم تحدث أصلاً، وإنما هي أكذوبة لإفساد العلاقات السعودية المصرية..

ولم أقل ذلك!!

وهنا اعتدل صاحب السمو الملكي وقال: بل حدث، وهي ثابتة في التاريخ، فكيف تنفي ذلك؟! إن الحادثة موجودة في كتبكم أنتم.. في كتاب فلان وعلان.. أنتم الذين قلتم ولسنا نحن..

فقلت: يا طويل العمر هي غلطة. فهل أستطيع أن أرد؟

فقال : طبعًا..

قلت: يا طويل العمر أنتم جئتم إلى بلادنا وغيرتم ديننا ولغتنا. ونحن من 14 قرنًا مسلمون نتكلم العربية. ولم نتقدم بشكوى واحدة. وما زلنا نحتفل بالمولد النبوي ونصف شعبان وليلة القدر.. ونعتمر ونحج.. وسعداء!

ضحك الأمير والحضور في المجلس.

وتوقعت أن يموت عبد الحليم في تلك الليلة!

حضرت «بروفات» كثيرة لأغنيات أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وفايزة أحمد ومحمد فوزي وفريد الأطرش. سمعت المثير من الأغاني على العود. أي وهي تولد وقبل أن يتم توزيعها موسيقيًا.. وكيف كان المطرب يعيد ويزيد ويغير ويبدل الدخول والخروج والطلوع والنزول وكيف يقفل فوق أو تحت..

سمعت عبد الوهاب وهو يغني لأم كلثوم وهي تردد وراءه. أحيانًا يغني لها وأحيانًا يبعث لها بالأغنية مسجلة لتحفظها في بيتها وكانت أم كلثوم تقترح تعديلاً في اللحن وأحيانًا تطلب من الشاعر أن يغير بعض الكلمات. ومرة سمعت عبد الوهاب يقول لفايزة أحمد وهي تغني أمامه (ست الحبايب) وقد أدخلت هي تعديلاً بسيطًا: الله.. كده أحسن يا فايزة قولي كمان مرة..

وأجمل متعة كانت معايشتي لأغنية «إنت عمري».. سمعتها من عبد الوهاب وسمعتها من عبد الوهاب وأم كلثوم معًا ومن أم كلثوم وحدها!

وكيف استطاع عملاقان أن يتفقا وأن يغيرا ويبدلا حتى كانت هذه التحفة الغنائية الفريدة!

مرة واحدة ندمت على حضور بروفة لأغنية، وكانت أغنية «موعود» لعبد الحليم حافظ.. تلحين بليغ حمدي. البروفة كانت في بيت عبد الحليم. وكان الإعياء باديًا مع شحوب وجه عبد الحليم. وكان يعيد ويكرر. ويطلب من الفرقة الموسيقية أن تردد. ثم يطلب تغيير مواقعهم.. وبين كل جملة وأخرى كان يشرب دواء ويبتلع حبوبًا. ولم أستمتع بهذه البروفات لأن عبد الحليم قد نجح في إفسادها علينا بوجهه الشاحب والإرهاق الواضح عليه ولما انتهت البروفات قال لي عبد الحليم: غدًا تجيء ولك مقعد في الصف الأول تراني وأراك!

أما الأغنية فهي من أروع إبداعات بليغ حمدي، ففيها من البلاغة والمحسنات البديعية ما أذهل محمد عبد الوهاب.

وذهبت حزينًا خائفًا، وجلست وجاء عبد الحليم، وهبت عليه عواصف من التصفيق. وبدأ يغني. وأنا أتوقع أن يسقط على المسرح في أية لحظة.

هذا الخوف عليه هو الذي أفسد متعة اللحن الجميل. ولم يحدث شيء والحمد لله.. ولكن حدث شيء واحد مؤكد: حزني وخوفي مما أوجعني عليه.. ولم أنم ليلتي!.

مطلوب عريس حتى الفجر!

عندما ذهبت قواتنا المسلحة إلى اليمن رأينا أنه من الواجب - نحن الأدباء - أن نذهب لنرى ونشارك ثم نكتب. وقد دخلنا الحرب وخرجنا. لا كنا سعداء ولا اليمنيون. ولم نعرف حتى الآن كم عدد ضحايانا وضحاياهم وكم مليارًا أنفقنا.

وقيل لي إن في مياه اليمن دودة اسمها (دودة مدينا) وقلبت في دوائر المعارف وسألت الأطباء ولم أجد لها علاجًا.. وفي ذلك الوقت كانت الأديبة الطبيبة نوال السعداوي سكرتيرة وزير الصحة وطلبت منها أن تعد لي صندوقًا به كل الأدوية لكل الأمراض.

أما الوفد فهو : نجيب محفوظ ويوسف السباعي وصالح جودت ومحمود حسن إسماعيل وأنا..

ولم أذق طعم الماء. وإنما كنت أذهب إلى مكتب الأمم المتحدة وأشرب الكوكا ليلاً ونهارًا.. حتى الاستحمام كنت أكتفي باستخدام السبرتو - إلى آخر الأوهام والمخاوف التي عندي من كل شيء.

وفي يوم بعد منتصف الليل جاءني أحد الأشقاء اليمنيين وقد أيقظني وقال: عندي عروسة من قبيلة تقرأ لك وتخطبك إلى نفسها.

عند منتصف الليل؟ ثم إنني لم أطلب عروسًا!

– فقال ربما كانت صغيرة السن ولكنها جميلة ومن قبيلة كبرى. ورفضها يسبب أزمة بين البلدين.

ثم عاد الرجل مرة ومرة.. يكرر نفس الطلب ويعرض بنات قبائل أخرى. وكان جادًا جدًا.. وظللنا نتناقش حتى مطلع الفجر. وأنا أرفض، وأخيرًا قلت: يا سيدي لا أستطيع أن أتزوج فأنا متزوج من أربع في مصر!

وفي نفسي قلت: يا دي المصيبة! إن عبد الناصر قد فصلني من عملي سنتين ثم أعادني منذ أيام.. فهل أصنع مشكلة جديدة وأتهم بالعبث في اليمن؟!

وبسرعة انفتح باب غرفة نجيب محفوظ ليضحك ضحكته المجلجلة!

إنه مقلب قاتل.

قليل من الجبن وكثير من الكسكسي!

كنت رئيسًا لوفد صحفي إلى الجزائر. وقابلت الرئيس هواري بومدين. وكان رجلاً لطيفًا رقيقا والناس في الجزائر لا يرونه كذلك ونحن أيضًا نرى أن الجزائريين جادون نحاول أن نضحكهم فنفشل في كل مرة، بينما ليس أسهل من أن نضحك المغاربة.. عندهم نكت مثل التي عندنا ويحبون أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم. ووجدنا من الصعب أن نقول نكتة لأي جزائري.

وفي كثير من الأحيان عندما نحاول أن نداعب جزائريًا نقول له: سوف أحكي لك نكتة يضحك لها المصريون والمغاربة والتوانسة ولا يضحك لها الليبيون..

ونقول النكتة بعد هذه المقدمة المغربية المشجعة. فلا يضحك!

وظهرت أنا في التليفزيون أقول: كانت مفاجأة أن وجدت الرئيس هواري بومدين يضحك للنكتة المصرية.

ولم أكد أفرغ من هذه العبارة حتى دق جرس التليفون وسمعت مسئولاً كبيرًا يقول لي: إن الذي قلته معناه أن الرئيس يضحك والشعب مهموم حزين، لابد من أن تصحح هذه الغلطة الفظيعة!

ولا مجال للمناقشة والأخذ والرد.

وبعد دقائق ظهرتُ على الشاشة أقول: ولأن الرئيس بومدين تعلم في مصر فقد جاملنا نحن المصريين فكان يداعبنا ويضحك رغم همومه الكثيرة.. إنه كرم الضيافة.

وفي اللقاء سألني الرئيس بومدين إن كانت لنا شكوى أو أن شيئًا ينقصنا فتشجع الزملاء وقالوا له : إننا لا نجد الجبنة البيضاء ونجد الكثير جدًّا من الكسكسي صباحًا ومساء.

فهمس في التليفون. وبعد لحظات جاء من يهمس في أذنه: إن الجبن يأتي من القصر الجمهوري، أما الكسكسي في الإفطار والغداء والعشاء. فالطاهي ينفذ تعليمات رئيس الوفد!

وكان ذلك مقلبًا مني لكل الزملاء.

وفي اليوم التالي ظهرت الجبنة البيضاء في الوجبات الثلاث.. وعندما طالبوا بالكسكسي قال الطاهي: لابد من موافقة القصر الجمهوري..

واعتذرنا، فليس من اللائق أن يكون الهزار المصري على هذا المستوى الرفيع، بينما كل شيء حولنا جاد صارم!

ذهب يسأل عن بيجين في رومانيا!

قبل زيارة الرئيس السادات للقدس رأى أن يذهب إلى الرئيس الروماني شاوشيسكو. أما الهدف فهو أن يعرف منه الشيء الكثير عن مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل. وكان السادات قبل ذلك قد كلفني أن أجمع أفلامًا عن حياة مناحم بيجين وعن مواقفه في الكنيست، كيف يقول وكيف يناقش، فقد سمع السادات أنه خطيب خطير وأنه يحاور ويناور وأن لديه قدرة فائقة على الإقناع. وجمعت له عددًا من الأفلام. حصلت عليها من إسرائيل ومن أمريكا وتطوع بعض أعضاء حزب بيجين بهذه الأفلام والترجمة العربية أيضًا.

* * *

ورأى السادات أن يستكمل معلوماته عن هذا الخصم العنيد الذي سيواجهه ويناقشه ويفاوضه في إسرائيل وفي أمريكا وفي مصر أيضًا.

وقد فعل السادات بالضبط ما تفعله الفرق الرياضية عندما تتفرج على الفرق المنافسة لتعرف أسلوبها في اللعب، أو كما يفعل المتنافسون من الملاكمين.. وقد عرف السادات أن بطل الأبطال محمد علي كلاي كان يفعل ذلك بإيعاز من المدربين له.

وقال له شاوشيسكو: إن بيجين هو أقوى رجل في إسرائيل. وإنه من حسن الحظ أن بيجين في الحكم وليس في المعارضة. ولو كان معارضًا لتعطلت عملية السلام.

وفي الطائرة قلت للرئيس السادات: نحن الآن فوق تركيا وعلى خط مستقيم مع جبل أرارات، فسألني : يعني إيه؟ فقلت: يا ريس جبل أرارات ويسمونه أيضًا جبل الجودي والذي ورد ذكره في القرآن عند الحديث عن سفينة نوح، القرآن يقول ﴿وَاسْتَوَتْ على الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44].

– يعني إيه؟

قلت: يا ريس أنت تقوم بدور نوح في مواجهة الطوفان من الضياع والضباب والظلام والحروب من كل لون وحجم ونوع، وذلك من باب المقاربة وليس المشابهة.

وهز السادات رأسه ولم يقل شيئًا، وتمنيت له ولنا أن نحقق النجاح والنجاة والسلام!

عندما تكلمتُ نقصًا!

كنت في مدينة سيدني بأستراليا.. وقد أشرقت الشمس في أغسطس البارد جدًا. وخرجت أتمشى وكانت كل المحلات مغلقة إلا المقاهي والمطاعم - وسمعت صوت مضارب التنس وهي تصفع الكرة بانتظام، فاتجهت ناحية الصوت.. وجلست في مكان المتفرجين.. ووجدت فتاة حلوة تلعب وحدها. لعلها في انتظار شريك لها. ومضت الدقائق ولكن أحدًا لم يحضر. فنزلت واتجهت إليها وسألتها إن كان من الممكن أن ألعب معها. ووافقت. ولا أدعي أنني أجيد هذه اللعبة وإنما أصد وأرد بلغة الكرة ولكنها (لعيبة) حريفة.. ولاحظت أنني مبتدئ فترفقت بي.. وكانت ترسل الكرة بحيث لا أجدني مضطرًا للجري يمينًا وشمالا، وجاء من كانت تنتظره وشكرتها. وخرجت إلى الشارع أبحث عن شيء أكتبه. ولم أجد.. واتجهت إلى المكتبات، أقرأ الفترينات. ثم قررت أن أذهب إلى حديقة الحيوان. ولم يلفت نظري إلا غراب أبيض. وكان العرب يرون أن الغراب الأبيض أحد المستحيلات، قال الشاعر البائس:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي	***وصار القار كاللبن الحليب***
وصار البر مرتع كل حـوت	***وصار البحر مرتع كل ذيب***

فالذي نراه مستحيلا ممكن في أستراليا..

وفي الصباح كانت المفاجأة الفاجعة. فتحت صحيفة (التايمس) وفي صفحة الرياضة وجدت صورتي من أول الصفحة لآخرها. وقد كتب المحرر الرياضي: بهذا الشكل لا يصح أن يلعب أحد، فإمساك المضرب غلط.. والوقفة غلط واللعب بالبالطو غلط.. والوقوف مع ثني الركبتين غلط.. ولما رأيت الصورة ووجدتني قد انحنيت وانثنيت أحسست أن هذه هي لعبة (التحطيب) أي كل ما فعلت خطأ في خطأ أو بعبارة واحدة: لقد تكاملت نقصًا!

أي أنني عبرة لمن يعتبر!

غلطة: أن تداعب أحدًا من الهنود!

سألني ضابط الجوازات في مطار مدراس الهندي: ماذا تعمل؟

فقلت مداعبًا: راقص! مع أن وظيفتي في جواز السفر مكتوبة أنني صحفي.

وظننت أن الدعابة انتهت عند هذه العبارة.. ولكنه أشار إلى ضابط آخر، وبنفس الجدية الكئيبة الهندية. جاءني الضابط ووقفت أمامه. وأغلق الباب وقال لي: اخلع ملابسك كلها! وملامحه تؤكد أنه لا مفر. وسألت عن السبب فقال لي: إن فرقة عربية كانت بالأمس هنا ووجدوا معها كمية كبيرة من المخدرات والذهب!

إذن هذا هو السبب، أما غلطتي فهي أنني لم أكن أعرف أن قارة آسيا ليست كلها أولاد نكتة. ويحبون الضحك بل يضحكون عمال على بطال - إلا الهند. فكأنهم قد أخذوا نصيب الهند من الضحك. وتركوا الألف مليون هندي لا يضحكون!

وكنت أتعجل الخروج من الهند، فقد كتبت عنها ما أغضبها ونشرت الصحف والمجلات المصرية مقالاتي وأنا أتحدث عن الشوارع الهندية والروائح الكريهة في كل مكان وعبادة البقر. وهاجمتني الصحف.

وبعملية حسابية بسيطة قررت أن أهرب من الهند.. أما الحكاية فهي أن الهنود لو رجموني كل واحد بحجر لأقاموا فوقي هرمًا. وهربت إلى جزيرة سيلان (سري لانكا) أبحث عن العشرين عامًا التي أمضاها الزعيم المصري عرابي باشا ووجدت الوجوه في سيلان هندية ولكنها أفلتت من الكآبة.. وكنت أداعبهم ويضحكون وأنا أروي لهم ما حدث لي في مطار مدراس. فرأوا في ذلك تحية لهم وتأكيدًا بأنهم أخف دمًا من الهنود!

80٪ من المصريين لا يعرفون الملك فاروق!

عندما قامت ثورة يوليو سنة 1952 كان عدد سكان مصر 17 مليونًا، والآن عددنا 77 مليونًا. ستون مليونًا لا يعرفون من هم الملوك: فؤاد ونازلي وفريدة وناريمان. و99٪ من الشعب المصري وكل العرب لم يدخلوا القصور الملكية ولا عرفوا لها شكلاً ولا لونًا ولا أبهة. والذين يتابعون مسلسل «الملك فاروق» يرون شيئًا جديدًا سمعوا عنه ولم يروه.. ولكن أحدًا من كل هؤلاء لم يعرف كيف كانت الأحاديث تجري في القصور الملكية: بالفرنسية والتركية والإيطالية والإنجليزية واللهجة المصرية. وفي نفس الوقت لم تتصور ولا يتصور أحد أن الحوارات تشبه حوارات زينات صدقي وعبد الفتاح القصري وإسماعيل ياسين.

فقد كان مستوى الحوار رفيعًا. وأنا أدعي أنني عرفت كل بنات الملك فاروق وعرفت الملكة فريدة عشر سنوات والملكة نازلي وسمعت ورأيت وشاركت، لم أجد كلمة واحدة نابية ولا عبارة منحطة.

ولا كانت العلاقات داخل القصر كأنها في أحد شقق شارع محمد علي، شارع العوالم والراقصات. إنها غلطة.

ويرضي غرور المشاهد المصري أن يعرف أن الملوك والأمراء كانوا أيضًا على مستواه من الانزلاق إلى الغلط وإلى النذالة والرذيلة أيضًا.

ولم تفلح ثورة يوليو أن تجعل المصريين يكرهون الملك فاروق، لأنهم لا يعرفونه ويحتقرون الملكة نازلي؛ لأنهم لا يعرفونها.. ثم إن ثورة مصر قد سمحت لملك رضيع أن يخرج في سلام، وأن تعين بدلاً منه وصيًا على العرش. وأن تعين عشرات من الملوك الطغاة في مصر.

والناس يتساءلون: ما معنى أن يقوم بدور فاروق ممثل سوري وأن يخرج المسلسل مخرج سوري. أنا لا أرى بأسًا في ذلك، فالفن لا لون له ولا دين ولا وطن، الفن الجيد الأمريكي والفرنسي يلقى منا عظيم الاحترام.. وأرى أن هذا السؤال فج فنحن لا نسأل عن دين وجنسيات المطربات العربيات اللاتي أسعدن ليالي القاهرة وينبغي ألا نسأل. وهناك من يتساءل إن كان الغرض من المسلسل تجميل الملكية. ليس هذا غرضًا، كما أننا أنتجنا مسلسلات كثيرة في تقبيح الثورة ورجالها – ومعنا حق! وليس في نيتنا تغييرها.

ضربونا بجوز الهند: فنحن كفرة!

لم يتردد كل الذين سألهم التليفزيون عن ذكرياتهم في رمضان في أن يقولوا ويحكوا ويفتعلوا ويكرروا كلامًا لا معنى له. وسألت نفسي: صحيح، وأنت ما هي ذكرياتك في رمضان!

والجواب: ولا حاجة..

فكل شيء عادي، أكل وشرب وفوانيس، ثم إنني لا أسهر. وعلى أيامي لم يكن هناك تليفزيون ولا فوازير، ولا ذكريات. وكلهم يتحدثون عن شهر الصوم والعبادة والدعاء. ولا أذكر شيئًا من ذلك. فإذا كانت صلاة، فأبي وإذا كانت دعوات، فأمي.

وربما كانت حادثة واحدة أذكرها.. حادثة ولكنها لا تدخل في الذكريات التي أحب أن أذكرها وأجد متعة أو موعظة أو عبرة في ذلك. فقد كنت في جزيرة مندناو.. وهي الجزيرة الوحيدة في الفلبين التي يعيش فيها المسلمون. وكنا في رمضان. ولم أكن أعرف ذلك.. ولو عرفت لما صمت. فأنا على سفر بعيد جدًا.. ولكنهم كانوا صائمين.. وإذا غربت الشمس لا يفطرون. وأدهشني ذلك، فهم لا يفطرون إلا إذا اتصلوا بالسفير السعودي في مانيلا يسألونه، فيقول: أفطروا..

فإذا لم يجدوا السفير السعودي بحثوا عن السفير المصري يقول لهم : أفطروا.

فإذا لم يجدوا السفيرين، فإنهم يظلون صائمين ساعة أو ساعتين ثم يفطرون. وكان من بينهم واحد كان في الأزهر ولم يكمل دراسته ويتكلم اللغة العربية بصعوبة. حاولنا معًا أن نقنع الصائمين بالإفطار بعد غروب الشمس، فاعترضتنا إحدى الأساطير وهي أن الشمس لا تغرب أبدًا، وإنما إذا غربت هنا أشرقت على آخرين. ولابد من قرار من ولي الأمر. ولي الأمر بالنسبة لهم هو السفير السعودي أو السفير المصري..

وفي يوم حاولت أن أقنعهم بالعقل. نظرت إلى الشمس وهي تغرب وكذلك فعل الأخ الأزهري. وأفطرنا أمامهم.. فما كان منهم إلا أن انسحبوا وبعثوا لنا أطفالاً صغارًا يضربوننا بجوز الهند. لماذا؟ قالوا: أنتم كفرة!

ما أحوجنا جميعًا إلى هذه اليوجا!

في مواجهة الانحلال الأخلاقي والانطلاق الجسمي، ظهرت «اليوجا» في أوروبا وأمريكا، وهو رد فعل معقول وطبيعي.. وفي أوروبا وأمريكا موجات صاعدة وهابطة للانحلال الفردي والتفكك الاجتماعي عند الشبان، فهناك ملايين الشبان يدمنون الخمر، ويقبلون على الانتحار، وهناك ملايين الشابات يدمن المخدرات.. وقد ارتفعت نسبة الأمهات غير المتزوجات في أمريكا وفي أوروبا، وأصبح من المشاهد المألوفة زفاف العروس وهي حامل!!

وأصبح الاستخفاف ظاهرة عامة، فلا أحد من الشبان يريد أن يكون مسئولاً عن شيء أو عن أحد.. فأهم مظهر من مظاهر الانحلال ألا يكون الإنسان مسئولاً. ألا يكون طرفًا في قضية مثل الحرية.. أي ألا يكون هو حرًا.. وألا يحترم في الوقت نفسه حريات الآخرين.. أي لا يعرف الحدود. حدوده وحدود غيره!!

وفي مواجهة هذا الانحلال لا بد من التفكير في تشخيص هذا المرض وعلاجه.. وقيلت أسباب كثيرة: من بينها التمزق العائلي، ونقص الشعور الديني، وفيض المجلات والإذاعات الجنسية، والخوف من الموت بالقنابل والأسلحة النووية.

ولكن أسلوبًا واحدًا من أساليب العلاج كان أسهلها جميعًا.. هذا الأسلوب هو «اليوجا» وهو مذهب هندي في ترويض الإرادة الإنسانية، فالذي يمارس اليوجا يجب أن يتحكم في إحساساته وفي رغباته، وأن يسيطر على جسمه تمامًا.. عضوًا عضوًا وفي استطاعة الذي يمارس اليوجا أن يتنفس من جانب واحد من الأنف.. وأن يتوقف عن التنفس وقتًا طويلاً.. وفي استطاعته أن يمتنع عن الطعام وعن الشراب. وبعض الممارسين لليوجا صفت نفوسهم لدرجة القدرة على قراءة الأفكار وسماعها أيضًا.. وهذه اليوجا أسلوب مثالي.. لأن معناه أن يبدأ الإنسان بنفسه.. أي يبدأ بأن يقسو على نفسه، وأن يتحكم فيها قبل أن يطلب ذلك من غيره.. ولو استطاع الناس أن يسيطروا على رغباتهم وعلى شهواتهم وأن «يفرملوا» نزواتهم لتحقق السلام بين الناس وبين الشعوب. واليوجا ليست دينًا، كما أن كرة القدم وكرة السلة والسباحة ليست دينًا من الأديان، ولكنها جميعًا مناهج منظمة لترويض الجسم والنفس معًا.

وما أحوجنا الآن وفي كل وقت إلى تركيب فرامل وصفارات إنذار على نزواتنا وأطماعنا.. ما أحوجنا جميعًا إلى هذه اليوجا!

نشيد «هلت ليالي القمر»!

كنت أغني في الحفلات المدرسية.. صغير يغني للصغار.. ولم يدخل في حسابي أن هناك كبارًا يسمعون: المدرسين والآباء والأمهات.. فقد اعتدت أن أغني.. أقف وأنظر أمامي ولا أرى أحدًا.. وإنما هي مساحات من الضوء مع بعض الهمهمة، وأحيانًا أسمع من يقول: يا ناس اسكتوا.

ومعنى ذلك أن هناك همسًا وكلامًا لم يتوقفا رغم أنني واقف وأغني.. كما أنني لا أتبين وجهًا واحدًا من الجمهور، فلا أتبين كلمة واحدة مما يقال.. فهناك أصوات وألوان تواجهني أو تأتي من حولي.. وأمضي في الغناء بدون أن أعرف كيف بدأت وكيف مضيت ولا كيف انتهيت، ولا إن كان أحد قد قابل ذلك بالتصفيق، فالتصفيق والصفافير في أذني.. ولا أعرف إن كنت أنا مصدر كل ذلك خوفًا وخجلاً وحرجًا.

ولم أجد الموقف غريبًا عندما حضرت مهرجان الشباب في فيينا، ولم أكن طالبًا بل شابًا مدرسًا للفلسفة في الجامعة. وحضرت ولم يخطر على بالي أنني سوف أشارك بشيء.. اللهم إلا بالحضور وتسجيل ذلك في مقال أبعث به إلى مصر.. وسمعت من يقول: مطلوب من أحد المصريين أن يغني لنا النشيد القومي.

واندفعت.. ووجدت نفسي أمام الميكروفون. وكانت فضيحة، فأنا قد نسيت النشيد القومي وكان الصمت رهيبًا. أو أنني سمعت الصمت الرهيب. ووجدت حلاً سريعًا فغنيت: هلت ليالي القمر لأم كلثوم.. غنيتها على أنها نشيد حماسي.. ولا أعرف كم غنيت من هذه الأغنية وكم حفظت وكم نسيت. وكان التصفيق، وعندما ذهبت إلى مكاني وجدت وجوهًا شرقية مصرية غارقة في الضحك.

ولما حكيت لأم كلثوم قالت: يعني فضحتني وفضحت مصر.. أما ما يخصني من الفضيحة، فأنا قد سامحتك.. وعليك أن تتولى الدفاع عن نفسك.. وعن أن مصر ليس لها نشيد قومي.

وقد ظننت أن الغناء في المدرسة مثل الغناء وسط الأجانب الذين لا يعرفون اللغة العربية ولا يعرفون نشيدنا القومي.. فأنا غنيت لمن لا يسمع، وإذا سمع فلن يفهم. كأنني غنيت لنفسي، لولا أنني عندما أغني لنفسي فأنا معجب بالذي أسمعه عندما أقوله!

يكفي أن تكون حيًا لتعيش حياتك!

هذه الحكمة هي خلاصة رواية قديمة ظهرت في القرن التاسع عشر لمؤلف فرنسي اسمه هكتور مالو.

الرواية اسمها «لا عائلة له» أو «واحد بلا عائلة».. فقد وجدت أسرة طفلاً ملفوفًا في ثوب حريري، والطفل ألقته أمه على الرصيف خوفًا من الفضيحة.. أو لعل هذا المولود الذي هو صورة الفضيحة أن يموت. وبذلك تموت الفضيحة وتذهب الأم تبحث عن فضيحة أخرى. وهذه الأسرة تتكون من رجل يعزف على الناي ومعه عدد من الكلاب والقرود. هو ينفخ في الناي، والقرود والكلاب ترقص والناس يتكرمون فيدفعون له (الحسنة)، وتعلم الولد الصنعة من هذا الأب. ومات الأب. وراح الولد الذي صار شابًا يتنقل بين الشوارع والقرى ينفخ والكلاب والقرود ترقص والناس يصفقون ويدفعون.. وجد الشاب أن سعادته لن تكتمل إلا إذا اهتدى إلى أبويه.. وأين وكيف يلتقي بهما؟ وصعب عليه الأمر واستحال أن يهتدي إلى أحد.. ولكن تأكد له أنه أفسد حياته تمامًا بحثًا عن وهم، ولكن أن يكون ابنًا ليس وهمًا، وأن يكون له أب وأم ليس وهمًا، ولكن الوهم أن يجدهما.. وأن يبدد ليله ونهاره وماله بحثًا عنهما. ونسي أن يعيش. فهو موجود ولا

يهم من كان أباه وأمه.. ومن الغريب أن الكاتب الفرنسي قال عبارة، قالها من قبله أبو العلاء المعري. هل قرأها. هل هي صدفة. ولكن الموقف الواحد يفرز اللفظ والعبارة الواحدة ممكن، إذا كان أبو العلاء قد أفلح في إسكات تلاميذه وإقناعهم، فإن المؤلف الفرنسي لم يفلح في إقناع بطل روايته وتركه ضائعًا يائسًا حتى الموت، فكان نموذجًا لمن أضاع العمر بحثًا عن الوهم، ولمن أدار ظهره للحاضر جريًا وراء الماضي.. وانتهت الرواية الفرنسية، وكان لابد أن تنتهي من دون أن تجد حلاً مريحًا فقد اختار الكاتب الدوخة والبهدلة والندم لبطل روايته!

الأثريون : نباشو القبور!

الأثريون هم نباشو القبور أونباشو القبور. وعيونهم تحت الأرض. لي أصدقاء أثريون لا يرون من الدنيا إلا ما تحت أقدامهم.. وفرحتهم لا نهائية إذا وجدوا طوبة أو قطعة خشب أو رفات حيوان أو إنسان.

وكانت لي تجارب مع عدد من أصدقائي الأثريين. ولم أشاركهم سعادتهم بما يعثرون عليه. تمامًا كما أنهم لا يشاركونني تقليب الأوراق وحشد الكتب في رفوف باتساع الجدران.

ولا يمضي وقت طويل حتى تتجه الصحف إلى مقبرة فتحت أخيرًا. أو سوف تفتح. أو من الضروري فتحها. أما نحن المصريين فقد اعتدنا على مقابر أجدادنا من أول مينا حتى أستاذنا العقاد.

وفي الأسبوع الماضي أعيدت بقايا من رمسيس.. وسوف تعاد بقاياه من أماكن أخرى. وفي فرنسا اكتشف أحد الأطباء رفات (جان دارك) عذراء اللورين التي طالبت بطرد الإنجليز من احتلال فرنسا، فأحرقوها بتهمة الشعوذة، وكشف الطبيب الفرنسي أن ما يقال إنه رفات جان دارك ليس إلا بقايا مومياء فرعونية، وقد دفنوا معها قطة. ولم يتبق من القطة إلا وركها. فقد كان من عادتهم في العصور

الوسطى أن يحرقوا المرأة الساحرة ومعها قطة سوداء، التي هي رمز للشياطين عندما تتحول إلى حيوانات.. أما لماذا فعلوا ذلك؟ فلا نعرف..

كما وافقت الكنيسة في بريطانيا على فتح مقبرة سير سايكس السياسي والمفاوض والمستشرق الشهير بعد وفاته بثمانية وثمانين عامًا. ولكن لماذا؟ لأن السير سايكس قد توفي أثناء الطاعون الذي أصاب أوروبا وقتل الملايين، أما الطاعون فكان اسمه في ذلك الوقت الإنفلونزا الإسبانية – مع أنه لا علاقة مطلقًا لإسبانيا بهذا الوباء.. بل ربما كان الأمريكان والفرنسيون هم أول ضحاياه!

ويؤكد الأطباء أن السير سايكس لابد أن تكون وفاته بسبب إنفلونزا الطيور. ولم يكن أحد يعرف في ذلك الوقت أن الطيور هي السبب. ولكن الأطباء يريدون أن يتحققوا من ذلك. وسوف يجدون جثمان سير سايكس سليمًا إلى حد كبير، فقد دفن في صندوق من الرصاص المنيع. فإذا تأكد الأطباء من أن فيروس إنفلونزا الطيور هو الذي اختصر عمر هذه الشخصية السياسية الفذة، فسوف يبحثون عن مصير الفيروسات بعد هذه السنوات الطويلة، كيف عاشت وكيف ماتت وكيف تحولت وتحورت في جسم الإنسان كل هذه الفترة الطويلة؟

أحد الأقارب طالب أن يعرف نوع الخاتم الذي في يد السير سايكس اليسرى، فقد أشيع أن الخاتم الثمين قد سرق، وظهر في أصبع إحدى السيدات التي كانت على علاقة به، وهو قد نفى هذه العلاقة!

أما أستاذنا العقاد فقد لاحظ بعض مريديه أن هناك علامات حمراء في جبهته. فهل سقط من سريره المنخفض جدًا أو أن أحدًا أجهز عليه؟! لقد مات العقاد وسره معه تحت التراب الذي لن ينبشه أحد!

البنك الدولي وسيدة من ليبيا!

القرآن الكريم يقول: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:46]. والبنون هو تعبير مهذب عن الجنس. فالمال والجنس والسلطة تذيب الحديد. والجنس أقوى.

وأمامنا صورة رئيس البنك الدولي، وعشيقته البريطانية الجنسية الليبية المولد التي ولدت في طرابلس منذ 53 عامًا من أب ليبي وأم سورية. وهي تعلمت في جامعة أكسفورد وهي الآن مطلقة، واسمها شاهه رضا. وهي على قدر خطير من الذكاء والفهم العميق للسياسة، وخصوصًا في الشرق الأوسط. وقد عملت في إدارات أمريكية مختلفة وعلى مستوى الرؤساء، وكانت واحدة من الذين يخططون لإسقاط صدام حسين.

وعملت مع رئيس البنك الدولي بول ولفيتس. وبدأت وزارات الخارجية والدفاع والعدل الأمريكية تتهامس على العلاقة الغرامية بين رئيس البنك الدولي وإحدى الموظفات التي قفز مرتبها إلى أعلى من مرتب وزيرة خارجية أمريكا. وطبيعي أن يتساءلوا أو أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك، واعترضت وزارتا المالية في بريطانيا وفرنسا فقد ساءت سمعة البنك الدولي! إذ كيف يعدل رئيس البنك بين الشعوب

ولا يعدل بين الموظفين الأقدم والأكثر علمًا وتجربة! وطالبوه بأن يستقيل فورًا.

ولكنه أصر على أن يبقى في موقعه. أما حكاية الموظفة العشيقة فأمرها لإدارة البنك، تفعل بها ما تشاء!!

ورغم هذه الأزمة التي هزت سمعة البنك وموقع رئيس البنك، فإنه كان يظهر مع العشيقة في الأماكن العامة. والمعنى: ولا يهمني. فليصلح البنك الوضع الذي أغضب الجميع. أما هو فباق في مقعده، أي أنه أخرج لسانه للجميع في أمريكا وعبر الأطلنطي! ولن يكون ولفيتس آخر العشاق.

ولما سئلت شاهه رضا عن هذا الذي حدث كان ردها: هذه حرية شخصية. وإذا رأى البنك أو أية إدارة أخرى أنها تجاوزت فمن الممكن إصلاح ذلك. أما القلب فله أحكام أخرى نهائية. يعني: هي الأخرى أخرجت لسانها لكل البنوك ووزارات المالية.

وتطوعت إحدى زميلات الدراسة في جامعة أكسفورد فقالت: إن شاهه هذه لها طموحات، وأنها من الممكن أن تضحي بعشيقها.

وما زلت أشعر بالخجل؛

لأنني خجول جدًا فمن السهل توريطي. وهذا التوريط يؤدي إلى شلل فكري. وقد حدث كثيرًا. كنت في دنباسر عاصمة جزيرة بالي الإندونيسية ومعي خطاب من السفير المصري أقدمه للجالية اليمنية في الجزيرة. والجزيرة ديانتها البوذية. وهي الجزيرة الوحيدة من مئات الجزر في إندونيسيا التي ليست إسلامية. وكان اليمنيون سعداء بأن يجيء إليهم شاب أزهري - هكذا قدمني السفير المصري. وهذا أفضل من أن يعرفوا أنني صحفي أو كاتب. وفعلاً ظهرت عليهم السعادة ولكن لأسباب عرفتها في اليوم التالي.. عندما طلبوا مني أن أصلي بهم الجمعة وأن أخطب طبعًا. وكنت قد مارست ذلك وأنا طالب في الجامعة عندما كنت عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين في مدينة إمبابة. كنت أمينًا للمكتبة، وكانوا يطلبون مني أن أذهب إلى المسجد الفلاني لأداء فريضة الجمعة والخطبة.. وكنت أفعل ذلك ويمنتهى اليسر. ولم أفكر لحظة واحدة -وأنا الخجول- كيف جرؤت على ذلك.

وفي مدينة دنباسر أصابني ذهول ونسيان تام، فلم أعرف هل الصلاة بعد الخطبة أو قبلها. شيء عجيب أصابني. نسيان.. ذهول..

انـفـصــام.. ودارت بـــي الأرض.. وأثـنــاء دورانـهـا وجـدت حـلاً لـهـذه الورطة.. قلت لأحد اليمنيين: أنا عندي سؤال أريد أن أعرف الإجابة عنه.. فقد سمعت من أناس في جاكارتا عاصمة إندونيسيا أنكم تختلفون عنا.

كيف؟ نحن مسلمون. ونحن أبناء اليمن نقلنا الإسلام إلى قارة أسيا، فكان مئات الملايين من المسلمين. قلت: هل أنتم غيرتم موقع الخطبة من الصلاة؟

– الخطبة قبل الصلاة. كانت وسوف تبقى.

– الحمد لله.. لا خلاف بيننا، فقد قالوا لي إنكم تصلون قبل الخطبة!

وخطبت ولا أعرف ماذا قلت في ذلك اليوم. ولكن ليس من الصعب على من حفظ القرآن الكريم ويعرف عشرات من الأحاديث النبوية أن يخطب وأن يصلي بالناس حتى لو كانوا في الجزيرة البوذية الوحيدة!

أما الشيء الذي إذا ذكرته خجلت منه فهو أنني عندما كنت أذهب إلى إمـام المسجد لأقول لـه: مـن فضلك أو هـل تـأذن لي بـالخطبـة والصلاة.. وعندما أفرغ من ذلك فإنني لا أذهب إلى الإمام أشكره وأسأله إن كان راضيًا عن واحد من أبنائه جرؤ على أن يشغل مكانًا متواضعًا على المنبر.

لا شيء من ذلك كنت أقوله فأشعر بخجل عميق حتى اليوم!

ماذا تفعل لو انقطعت الكهرباء؟!

كنت عند الحلاق. وبدأ يحلق لي لحيتي عندما انقطع التيار الكهربي. وانتظرت نصف ساعة، واقترحت أن نذهب إلى مطعم أو صالون آخر ليكمل لي حلاقة لحيتي. وكان كل الأصدقاء والأقارب في الإسكندرية، وكان بيتي بعيدًا. وتذكرت الصديق الألماني فينتفور عميد المراسلين الأجانب في مصر. وكان الرجل نائمًا، فنحن في ساعة مبكرة. ودققت الباب. وقام الخادم يفرك عينيه. وقلت له السبب. وجلست والحلاق راح يكمل لي حلاقة لحيتي عندما انقطع التيار الكهربي مرة أخرى. ولم تكن المشكلة هي لحيتي وإنما رأسي مبلل وفي حاجة إلى مجفف والمجفف كهربي..

ووجدتني قريبًا من بيت الشاعر الكبير عزيز باشا أباظة والموسيقار محمد عبد الوهاب والأديب ثروت أباظة. خطر لي أن أدق باب ثروت أباظة وتذكرت أنه مزكوم، وقد يستقبلني ونتصافح أو يقبلني وأقبله وينتقل الزكام إلى أنفي..

أما عزيز باشا فهو صديق. ولكن ليس إلى درجة أن أدق بابه وأستأذن في أن يكمل الحلاق عمله..

ووجدتني بالقرب من المجمع اللغوي.. ومن بيت الفنانة نجاة الصغيرة.. والراقصة ليلى الجزائرية.. وفيلا أم كلثوم.

وترددت في أن أذهب إلى محمد عبد الوهاب في هذه الساعة المبكرة. فقد يكون وحده وزوجته في الأردن. ووجدت أن من السخف أن أوقظ كل هؤلاء بسبب تافه..

وطلبت صديقي وزير الداخلية زكي بدر، وسألني: سيادتك فين؟ فقلت: في السيارة أمام كلية الفنون الجميلة بالزمالك.

وبعد عشر دقائق فوجئت بسيارة إسعاف، ونزل منها طبيب واثنان من الممرضات. وانتقلت إلى قصر العيني. وفي مكتب د. خيري سمرة عميد كلية الطب أكمل الحلاق عمله، وأمسكت ورقة وقلمًا وكتبت اعتذارًا للعميد معترفًا بأنها ليست فكرتي، إنما فكرة وقرار صديقنا وزير الداخلية! وإن كانت له شكوى فليقدمها له إن استطاع!

إن وجدوا الجمجمة فسوف يحتفلون بها!

الشعوب ذاكرتها ضعيفة، فهي لا تذكر العظماء الذين ماتوا إلا متأخرين جدًا. هل هي صحوة الضمير؟ هل الشعوب لا تحب الثمار إلا إذا جفت وسقطت؟ فالشاعر الألماني العظيم فريدريش شيلر قد توفي من قرنين وسنتين عن 44 عامًا! وفجأة أحس بعض المؤرخين بأن هذا الفنان لم يلق ما يستحقه من حفاوة، اللهم إلا تمثالاً له ولصديقه الشاعر العظيم جيته في مدينة فرانكفورت على نهر الماين.. وقرروا نقل رفاته إلى مقبرة أفخم، فوجدوا مشكلة لا يعرفون لها حلاً، فالشاعر شيلر لم يدفنوه إلا بعد أيام من وفاته بعد أن تحلل جثمانه تمامًا. ولما دفنوه كان في مقبرة جماعية.. ولم يكن في استطاعة العلم في ذلك الوقت أن يعرف أين جمجمته بين العشرات..

ومنذ شهور حاول الفرنسيون الحفاوة ببطلتهم جان دارك (1412-1431) عذراء اللورين التي أحرقها الإنجليز بتهمة الشعوذة، مع أنها كانت تقود حركة مقاومة ضد الاحتلال البريطاني لبلادها.. ولما فتحوا المقبرة وحللوا رفاتها وجدوها مومياء فرعونية ومعها بقايا فأر!

كما أثبتت التحاليل الوراثية أن المومياء الفرعونية كانت للملكة حتشبسوت.. ولم نكن نعرف ذلك.

وتربطني بالشاعر الألماني ذكرى عزيزة غريبة، فأول كتاب مترجم قرأته في حياتي كان رواية اسمها «الحب والدسيسة». ولا أدعي أنني فهمتها في ذلك الوقت، فأنا لم أكن أعرف معنى الرواية ولا الفرق بينها وبين القصة.. قرأت ولم أستوعب.. أعجبتني عبارتان، واحدة تقول: إذا باض الشيطان بيضة أفرخت بنتًا جميلة.. والثانية تقول: إن الشاب الذي يطلب مني أن أقنع ابنتي بالزواج منه لا يلهمني الثقة به..

ما الذي أعجبني؟ لماذا لا أزال أحفظها؟ ولم تكن لي تجارب لا في الحب ولا في الزواج ولا حتى كنت قد عرفت فتاة في حياتي.

أما الحل فهو أنهم سيفتحون مقبرة ابن الشاعر، ومن معرفة الأحماض الوراثية سوف يهتدون إلى جمجمته، ويومها يحتفلون بالشاعر العظيم مع قليل من الخجل والعار.. إنه انتصار العلم على التاريخ!

أنا وهو وأنت على باب الله!

لا فرق بيني وبين أي بائع على رصيف الشارع، فهو بياع وأنا أيضًا. هو عنده سلعة، وأنا أيضًا. هو يحمل سلعته على كتفه، وأنا أحمل سلعتي في دماغي. هو له ساعات عمل، أو عنده مكان محدد، وأنا أعمل بلا ساعات، وأعمل في أي مكان وفي أي وقت، فالعقل كالقلب لا إجازة له.. وكلانا على باب الله.. نبيع يومًا ونكسب. ونمشي يومًا بلا بيع.. وسلعة التاجر هي هي.. وسلعتي ليست هي هي.. وإنما تتغير وتتبدل.. وقد يكسب التاجر في لحظة واحدة ما أكسبه طوال عمري.. وكان أستاذنا توفيق الحكيم يندهش كيف أن لاعب كرة القدم يكسب الملايين في سنة وسنتين.. ويظل كل الأدباء يعملون ويموتون ولا يكسبون في مائة سنة ما يكسبه لاعب بحذائه في مباراة واحدة!

ولذلك مات توفيق الحكيم وبقيت قولته الشهيرة: انتهى عصر القلم وبدأ عصر القدم!!

مع أن الذي رآه توفيق الحكيم وأوغر صدره على الذين يكسبون بالحذاء لم يكن إلا مبلغًا تافهًا.. عشرين مليون جنيه.. بينما في دول أخرى يكسب اللاعب ملايين الجنيهات المصرية. ولو علم توفيق الحكيم لعجلوا بوفاته.. ونحمد الله أنه لم يعلم بكل ذلك!

وأستاذنا العقاد غضب كثيرًا ولم نفلح في تهدئة ثورته، عندما قالت الصحف إنه تقاضى مبلغ مائتي جنيه عن برنامج في التليفزيون من إعدادي. وقال قولته الشهيرة: كيف يستكثر الناس على من قرأ خمسين ألف كتاب أن يتقاضى هذا المبلغ التافه، مع أن أية مطربة تافهة تتقاضى أضعاف هذا المبلغ في خمس دقائق؟!

إنها سلعة يا أستاذ. إنها بضاعة.. سلعتك وبضاعتنا. وسلعتنا وبضاعتها المطلوبة المرغوبة.. وسلعتنا الكاسدة.

وأستاذنا العقاد والمفكر العربي البديع أبو حيان التوحيدي كلاهما عاش فقيرًا ومات كذلك. وللعقاد رسائل يتسول من أصدقائه أن يساعدوه على لقمة العيش.. وأبو حيان يطلب من الأمير: سيدي أظلني بعطفك.. قتلني الجوع فلا تقتلني بالصمت!

مقلب في الأستاذ العقاد!

الحب أعمي والكراهية أيضًا!

كان أستاذنا العقاد لا يكف عن الهجوم على أمير الشعراء أحمد شوقي، كلما أتيحت له الفرصة.. أو كان يصنع الفرصة ليستأنف النقد العنيف لشوقي - وكنا لا نرى ذلك. ولكنْ للعقاد أسباب بعضها منطقي والباقي شخصي، ولكن لماذا؟!

وكان العقاد يقول إن قصائد شوقي ليست لها وحدة عضوية. بمعنى أن أبيات القصيدة ليست مترابطة تمامًا كترابط أعضاء الجسم: الرأس فوق والذراعان والساقان والقلب والمعدة.. أو مثل الشجرة لها ثمار وأزهار وأوراق وأغصان وساق وجذور.. ويقول: في استطاعتك أن تعيد ترتيب أبيات قصائد شوقي فلا يختل المعنى: لأنها في الأصل ليست ذات وحدة عضوية - وبعض الحق معه..

وفي يوم جاء الشاعر الساخر محمد حمام إلى (صالون العقاد)، وهو رجل ظريف وقد أوتي موهبة تقليد الأصوات، بما فيها صوت العقاد. وقد أوقع الأدباء في الشعراء في الساسة بسبب تقليد أصواتهم والحديث معهم وافتعال الخناقات..

وفي ذلك اليوم تحدث الأستاذ حمام عن الشعراء الشبان الذين لا يجدون فرصتهم لأن يلتفت إليهم الكبار أو الصحف والإذاعة.. وقال إنه استمع إلى عدد منهم في الأيام الماضية، وقد وعدهم بلقاء مع الأستاذ العقاد ليسمعهم ويوجههم. وأخرج الأستاذ حمام كمية من الأوراق وقرأ:

على قدر الهوى يأتي العتاب
ومن عاتبت تفديه الصحابُ
ألوم معذبَا فألوم نفسي
وأغضبها فيرضيها العذابُ
ولو أني استطعت لنبت عنه
ولكن كيف عن روحي المنابُ

وأعجب بها العقاد وانبرى يحدثنا عن مواطن الجمال والبلاغة. وأن صاحبها له مستقبل عظيم. وهنا نهض الأستاذ حمام وقال: إيه رأيك يا أستاذ أن هذه الأبيات لأمير الشعراء شوقي؟

وقفز العقاد وراءه يقول: يا ابن الـ..!!

ولم نملك إلا أن نضحك. وإن كان الأستاذ قد تضايق كثيرًا!

الحكيم: يطلب ثمن الخيانة الزوجية!

إنها مداعبات من الوزن الثقيل. خطر لي أن أسجل حوارًا بيني وبين الأستاذ الحكيم، وطلبت من رئيسة الإذاعة السيدة صفية المهندس أن تيسر لي ذلك.. على أن تنفرد هي بإذاعة هذا الحديث الفريد - وهو فريد لأن توفيق الحكيم لا يحب الإذاعة أو التليفزيون. لماذا؟ لأنه ليس لديه فصاحة طه حسين ولا بلاغة العقاد.. فهو يتهته. وكان يقول: إن من يسمعني لن يقرأ لي سطرًا واحدًا!

وهو مثل الشاعرين الكبيرين شوقي وإبراهيم ناجي.. كلاهما يتأتئ ويتهته وكذلك الأديب الإنجليزي الكبير سومرست موم!

وكان موضوع الحديث أنني أحاول إقناع توفيق الحكيم أن يكتب في مجلة «أكتوبر» التي أرأس تحريرها وقد سبق أن تناقشنا في ذلك.. وأريده أن يعيد ما قال لكي أسجله. وتوفيق الحكيم شخصية ظريفة ومسلية وممتعة. قلت له: اتفقنا..

على إيه؟

- على الصداق المسمى بيننا؟

- لا.. أنا متزوج جريدة «الأهرام» أما بالنسبة لمجلة «أكتوبر» فسوف تكون علاقة خارج الأسرة.. ويجب أن يكون المبلغ كبيرًا بسبب هذه الخيانة الزوجية.

- موافق يا أستاذ.. أدفع ثلاثة أمثال ما تتقاضاه من «الأهرام».

- موافق.

هذا هو المعنى، ولكن توفيق الحكيم يستخدم ألفاظًا بعضها عريان وبعضها يكاد يكون كذلك وهو يضحك وأنا أيضًا. وأريد أن أسجل كل ذلك وأذيعه دون إذن منه - دعابة خشنة!

ولكن وجدنا صعوبة، وهي أن بعض الألفاظ نابية تمامًا. ولا يمكن حذفها. ثم أن الحكيم يضرب أمثلة جنسية للتعبير عن الذي يريد ويضحك وأضحك. وحاولت أن أجعل الحوار مفيدًا عمومًا فأحدثه عن الأدب والنقد ومستقبل القصة والرواية في مصر، فكان يقول: قصة إيه ورواية.. مستقبل البلد اللي رايح في ستين داهية.. وهوه عبد الناصر ترك لنا إلا الخراب!!

وقال توفيق الحكيم: أقول نكتة ختامًا لهذا الحديث كما كانوا يفعلون مع الرجل الغلبان أبو حيان التوحيدي.. بعد مناقشة طويلة فلسفية أدبية تاريخية انقطع فيها نفس هذا الرجل التعيس يطلبون إليه آخر نكتة! وتكون آخر نكتة هي أقسى درجات الهوان لعالم جليل!!

ثم يقول الحكيم نكتة قبيحة لا يمكن إذاعتها.. وهكذا كان حديث توفيق الحكيم شاملاً: الحديث ونسف هذا الحديث أيضًا!

المحلات هي (خاطبة) العصر الحديث!

لا بد أنه كان شابًا تعيسًا ذلك الذي نشر إعلانًا في إحدى الصحف الألمانية في يناير (كانون الثاني) سنة 1868 يطلب فيه عروسًا تناسبه، فقد جاء في الإعلان: شاب عمره 27 سنة من أسرة غنية، يرغب في الزواج من فتاة من أسرة غنية لا تزيد سنها على 25 سنة تحب الأطفال والحيوانات.

ولا أحد يعرف هل تزوج هذا الشاب بعد ذلك؟ وهل كانت زوجته فتاة قرأت هذا الإعلان؟ أو أنها فتاة أخرى التقى بها بمحض الصدفة في إحدى الحفلات أو أنه تزوج واحدة من قريباته.. رغم معارضته لذلك في أول الأمر.. أو أنه أعرض عن الزواج؟

يبدو أن هذا الشاب سجل أنه أول من نشر إعلان زواج في العالم!! واكتفى بذلك!

ولكن أشهر إعلان عن الزواج نشرته صحف أوروبا لصاحب جائزة نوبل، ألفريد نوبل، الرجل الذي اخترع الديناميت ثم أراد أن يكفر عن هذه الخطيئة العلمية: فجمع كل ما كسبه من بيع الديناميت ليخصصه لجوائز مالية تشجيعًا للبحث العلمي الذي يخفف آلام

الإنسانية، ثم العمل من أجل السلام.. هذا الرجل أعلن عن حاجته لسكرتيرة.. وجاءت السكرتيرة.. وكانت من أسرة نمساوية عريقة.. وقبل أن يصارحها بحبه لها، اعترفت له هي بحبها لشخص آخر.. وأنها تحلم بالزواج منه.. وجاء اعترافها هذا حبلاً من الديناميت نسف أحلام الرجل وأباد تفاؤله. وكانت هذه السكرتيرة هي حبه الوحيد.. وكانت أول امرأة تفوز بجائزة نوبل!!

وتتفاوت صيغ هذه الإعلانات في الصحف والمجلات، فهناك من يطلب صفات جسمية واضحة وصريحة، وأحيانًا عادية.. وهناك إعلانات عن الصداقة.. هناك إعلانات تطلب صور فتيات. وباب إعلانات الزواج يعود بالمال الكثير على الصحف والمجلات في أوروبا وأمريكا.

وهذه الإعلانات توكد حقيقة مؤلمة، وهي أنه برغم هذا الاختلاط الشديد بين الناس في العمل واللعب، فإن المسافة بين الناس بعيدة وشعور الناس بالعزلة والوحدة والأسى أعمق من أي وقت مضى!!!

وكأن هذا الاختلاط بين الناس لا يكفي لأن يختار الإنسان أية واحدة فيتزوجها.. أو كأنه لا يجسر على أن يصارحها بذلك.. أو كأن أحدًا لا يصدقه إذا أعلن أنه جاد في رغبته.. أو كأن هذا الزحام الذي يحيط بالإنسان من كل مكان قد يجعله يحس مرة أخرى بأنه وحده.. وأن الجنس الآخر بعيد عنه.. وأنه في حاجة إلى (خاطبة) والصحف هي خاطبة العصر الحديث!

المرأة لا تضيع وقتها!

المرأة اعتادت الانتظار.. انتظار الرجل: ما هي الخطوة التالية؟ ماذا سيصنع لها؟ والانتظار عند المرأة ليس وقتًا ضائعًا.. إنه وقت مليء بالإحساسات والحكايات، فالمرأة تنظر مفتوحة العينين على كل شيء ومفتوحة الأذنين أيضًا..

والذي تلمحه المرأة في لحظة، لا يدركه الرجل في ساعات.. ولو عرف الرجل ما الذي تقوله النساء إذا جلسن معًا، لأغمي على أكثر الرجال عقلاً، لأن المرأة عرفت أكثر مما يتصور الرجل، ولأنها لاحظت ما لا يدركه الرجل!

وعندما كان الرجل يعيش في الغابات، يقطع الأشجار ويجمع الثمار ويصيد الوحوش، كانت المرأة في انتظاره بعيدًا مع أطفالها.. وفي سنوات الانتظار اشتغلت المرأة بزراعة الأرض.. واشتغلت بتحويل الأغصان إلى أكواخ.. فالرجل يجمع الأعشاب والمرأة تصنع منها العش.. والمرأة في حاجة إلى العش أكثر من الرجل.. لأنها يجب أن تلد.. وأن ترضع طفلها، وأن تحتضنه، وأن تربيه، وأن تمرض قبل ذلك وبعده..

والأسطورة الإغريقية القديمة تحدثنا عن «بينلوب» التي انتظرت زوجها البطل عشرين عامًا.. لقد تكاثر الناس عليها يقولون لها إنه مات.. وإنه لن يعود لعلها تختار واحدًا منهم.. ولم تفعل.

وملأت وقتها بعمل «البلوفرات» وكانت تقول لكل رجل: عندما أفرغ من هذا «البلوفر» سوف أتزوجك، وكانت الخيوط التي تربطها بالنهار تفكها في الليل.. وبذلك بقيت مخلصة لزوجها.

ويقال إنها اشتغلتفي تربية الدواجن، وإنها كسبت مالاً كثيرًا، أي إنها لم تضيع وقتها.. ولما جاء زوجها قتل كل من حولها من الرجال.. أما «ألف ليلة وليلة» فقد كانت نهايتها أجمل وأعمق، فبعد أن فرغت شهر زاد من حكاية المائة والعشرين قصة في ألف ليلة طلبت بدموعها من الملك شهريار ألا يقتلها، كما هي عادته، من أجل أبنائها الثلاثة.. أبنائهما الثلاثة.

وكانت مفاجأة، فقد اعتاد الملك أن يقتل كل ليلة فتاة.. فلما تزوج شهر زاد استطاعت أن تنسيه هذه الجريمة.. ففي مواجهة شهر زاد للموت راحت تسلي الملك، وفي مواجهتها هذا المصير المخيف حولته من زوج إلى عاشق. وبدون أن يدري الملك حولته من عاشق إلى أب.. ثلاث مرات.. إن شهر زاد - وأي شهر زاد - قادرة على الانتظار.. وقادرة على أن تملأ فراغها بما يشد الرجل إليها.. إنها لا تضيع وقتها حتى لو تظاهرت بذلك!

أم مثقفة .. أين؟!

لو كانت أمهاتنا مثقفات.. لو كن يعرفن الدنيا.. لو قلن شيئًا مفيدًا ونحن صغار.. لو أمسكت واحدة منهن يدنا ودفعتنا بالقوة إلى المتحف، وأشارت إلى عربة رمسيس وقالت: هذه العربة التي كانت تجرها الجياد كان يركبها الملك من ألوف السنين.. ثم نظرت إلى كل واحد منا نظرة ذات معنى.. لو حدث هذا لتغير وجه التاريخ..

فإن الرجل الأمريكي «فورد» الذي ابتكر السيارة لم يكن نائمًا ثم صحا من نومه وفي جيبه تصميم لسيارة صغيرة، وإنما كان يفكر دائمًا في شيء أحسن من العربات الغليظة التي توقظ النائمين والتي تمر من تحت شباك غرفته، وكان لا يدري ما الذي يفعله. إن أمه فكرت في أن يجعل غرفته في مكان آخر.. وإن أبوه فكر في أن يجعل شباكه مسدودًا بإحكام حتى لا يسمع هذه الضوضاء.. ولكن الطفل كان يضع رأسه تحت المخدة ولا ينام..

واكتشفت أمه ذلك، وسألته عن سبب أرقه، فقال إنه عندما يطبق عينيه ويسد أذنيه يحلم بأنه يسمع ضوضاء العربات.. وهنا برقت عيناها - كما لم تفعل أمهاتنا - وقالت له: إذن اعمل أي شيء.. ابحث عن طريقة لكي تكون هناك عربات بلا ضوضاء!!

وكأن كل مواهب الطفل مجموعة من الجنود في ملابس الميدان قد صدر إليها الأمر بالتقدم.. وتقدمت مواهبه نحو الهدف.. ولم تعبأ بالصعوبات الشديدة.. استطاع الطفل أن يفعل شيئًا.. وكانت السيارة التي تنطلق بسرعة وضوضاء أقل..

أما الرجل الذي اخترع طائرة الهليكوبتر – كلمة «هليوكبتر» خطأ فلا توجد واو بعد الياء في الأصل اليوناني – فهو روسي الأصل وقد ذهب مع أمه في يوم من الأيام إلى المتحف.. ولسبب لا يعرفه الطفل اتجهت أمه إلى إحدى لوحات دافنشي.. ثم أشارت إلى أصابعها التي تضغط على إصبعه وقالت: هذا رسم كروكي لدافنشي من 400 سنة.. إنه مشروع طائرة ترتفع عموديًا.. فكرة رائعة!!

هذا الصغير اسمه سكورسكي، وهو الذي اخترع الهليكوبتر بأشكالها وأحجامها المختلفة، وقد أنفقت أسرته كل ما تملك من أجل أن ينجح هذا الطفل الذي رأي فقط صورة غير واضحة رسمها خيال فنان عظيم!!

إن أمهات اليوم يستطعن الكثير جدًا.. فإن أعظم الاختراعات والأعمال قد بدأت بإشارة ذكية واعية من أم إلى طفلها!

كان العقاد سابقًا لزمانه!

في أول لقاء بين أستاذنا عباس العقاد والزعيم الديني عباس أفندي عبد البهاء.. وكان عبد البهاء قد زار الواحات، حيث الأشجار والثمار، فقال: سبحان الله حيث يوجد الماء يوجد الزرع. فقال العقاد: بل حيث يوجد الزرع يوجد الماء.

فما الخلاف بينهما؟ عبد البهاء يرى أن الماء مصدر الحياة. والقرآن يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30] والعقاد يقول إن الله ما دام قد خلق الزرع فلا بد أن يخلق له الماء!

وكانت هذه بداية لنقاش طويل بينهما واستعراضًا علميًا مبكرًا لمدى تكيف الحيوانات مع ظروف الصحراء القاسية، فالإبل مثلاً لها وبر كثيف يحميها من الشمس. وإن كانت بطونها لا يغطيها شعر كثيف حتى لا تلسعها حرارة الصحراء كما أن السنم به دهن وماء. فإذا جاعت أو عطشت سحبت طعامها من الرصيد فوق ظهرها!

والزواحف في الصحراء لها جلد بلا مسام. أي لا ينفذ فيه أو منه الماء، ثم إن هذا الجلد تحته طبقة دهنية عازلة للحرارة، والثعابين اهتدت إلى أن تزحف بصورة حلزونية حتى لا تلتصق أجسامها دائمًا

برمال الصحراء.. والثعالب تقضي الصيف كله في جحورها تحت الأرض.. أما آذانها الطويلة فهي التي تسحب حرارة جسمها إلى الخارج، حتى قال الأستاذ العقاد كلامًا عجيبًا - وهو عجيب لأنه قاله في أوائل القرن الماضي. قال: إن صحاري الأرض مثل صحاري الكواكب الأخرى، وإذا عاش الإنسان فوقها فلا بد أن يستعير ما اهتدت إليه الحيوانات ليتفادى الحرارة والجفاف. فقال له عباس عبد البهاء: وهل سيحدث شيء من ذلك؟ فقال العقاد وكأنه أحد علماء الفضاء وكأنه ذهب ومشى على سطح القمر والمريخ: نعم ولن ينقذنا مما نحن فيه إلا كواكب أخرى لتبدأ التجربة الإنسانية من جديد!

وظهر عدم التصديق على وجه عباس عبد البهاء، فسجل على نفسه أنه ابن القرن التاسع عشر أما العقاد فكان ابن القرن العشرين والحادي والعشرين!

متعتي في رسائل القراء!

ربما كنت أكثر الناس إدمانًا لرسائل القراء في كل الصحف التي أقرؤها. وأنا أحرص عليها أكثر من حرصي على المقالات في كل الصحف العربية، وأجد في ذلك متعة مؤكدة، وأندهش لما يخطر على بال القراء ولا يخطر على بال الكتاب، ومدى حساسية القراء لكل ما هو دين وجنس، ويذهبون في ذلك إلى أبعد من خيال أكثر الأقلام حرصًا. وقديمًا قالها فولتير من مئات السنين: أعطني أكثر الكتاب حرصًا وأنا أستطيع أن أستخرج مما كتب معنى يذهب به إلى المشنقة!

فما بالك إذا لم يكن الكاتب هذا الحريص الذي يمشي على الحبل ولا يهتز، وإذا اهتز لا يقع وإذا وقع فليس في أحضان أحد من الناس!

ولكن توقفت طويلاً عند تعليقات القراء وتمنيت لو أستطيع أن أرد على الذي قالوه عني وعن غيري، وأن أصحح الأخطاء التي وقعت فيها.. ولكن عدم تصحيح هذه الأخطاء يعطي القارئ شعورًا بالرضى، فقد أخطأ الكاتب وأصاب القارئ.. ويسعد القارئ أيضًا أنه أسكت الكاتب وألقى عليه حجرًا وفضحه بين الناس. فليس الكبير كبيرًا جدًا، وليس الصغير صغيرًا.

وأنا أختلف عن كثير جدًا من الكتاب الذين أعرفهم، فهم يتجاهلون رأي القراء. أما أنا فلا، بل أضع علامات تحت السطور وأنقل ما قالوه. وعندي أمل في أن أجد شكلاً مناسبًا لهذه الآراء والتعليق عليها. وكثير من الآراء جيدة وأسلوبها ممتع وإطراؤها جميل ونقدها عنيف.. ولكنها آراء تستحق عظيم الاحترام.

ولا أنسى ولن أنسى قارئًا أوجعني، فقد كنت أبكي على مرض زوجتي، وأبكيت الناس في مصر علينا، فتلقيت رسالة من قارئ يقول فيها: احمد ربنا أنك تجد العلاج وأن العلاج في باريس، وأنك تستطيع أن تشكو وأن تجد من يسمعك ومن يبكي معك عليك.. أما نحن.. إلخ.

وقارئ كتب يقول إنني أكرر نفسي، وأنا أرد عليه: نعم كثيرًا.. فعندي آراء ونظريات أحرص دائمًا على شرحها وإثبات صحتها. وأعيد وأزيد، وأوضحها. فعندي شعور قديم بأنني، مثل كل دارس للفلسفة، تجتاحني تعبيرات أكاديمية غامضة.. ولذلك أقول وأعيد في تبسيط وتوضيح نفسي ولا أجد حرجًا، فأنا أريد أن أكون مفهومًا لأقل الناس ثقافة!

أعيد وأزيد وبلا ملل!

نعم أنا أعيد وأزيد، لأنني أريد أن أوضح نفسي لنفسي وللناس. وعندي شعور بأنني يمكن أن أقول أحسن أو من الواجب أن أفعل ذلك..

والمناقشة قديمة مع الشاعر الكبير أبي تمام. فقد قيل له لماذا لا تقول ما يفهم الناس؟ فأجاب: ولماذا لا يفهم الناس ما أقول؟

ولست مع أبي تمام، فأنا الذي يجب أن يقول أوضح ويكتب أيسر ويكون أقرب إلى أصابع الناس وعيونهم وعقولهم - بشروط الناس وليس بشروطه. وقديمًا قال الأديب الروسي تولستوي: إن الذي لا يستطيع أن يشرح نظريته في خمس دقائق يجب أن يعدل عن ذلك!

وهي عبارة قاسية، فهو نفسه لم يفعل. فعندما تحدث عن الحرب والسلام كانت روايته الخالدة في ألف صفحة!

وليس أسهل من أن أكتب مقالاً طويلاً، وليس أصعب من كتابة مقال قصير. وهناك عبارة شهيرة لكاتب شهير، قال: لم يتسع وقتي لأجعل مقالي قصيرًا! أي أنه كتب طويلاً. أما لكي يجعله قصيرًا فيحتاج إلى وقت أطول!

والشاعر الألماني جيته، عندما قرأ الترجمة الفرنسية لمسرحيته «فاوست» قال: لقد فهمت نفسي من هذه الترجمة. والذي لم تسعفني به اللغة الألمانية استطاعت اللغة الفرنسة النفاذ في أعماقي فعرفتني -كما لم أعرف- نفسي!

وعندما علق الفيلسوف الألماني نيتشه على رأي الشاعر، قال: بل هي الجملة الفرنسية القصيرة أبلغ في الدلالة من العبارات الألمانية الطويلة الخشنة!

ويوم أبدى الأستاذ العقاد إعجابه بمقال كتبته أنا، أسعدني ذلك، وسألته متلهفًا: فما الذي أعجبك يا أستاذ؟ قال الإجابة الصاعقة: أسلوبك!

أسلوبي يعجب العقاد؟ إذن لا بد أن أسلوبي يشبه أسلوبه. وتوقفت عن الكتابة وأخذت مقالي وكتبته 28 مرة، أجرده من كل التراكيب الفلسفية. وانتهيت إلى أن أكتب بعبارة سهلة ومفردات قليلة.. وأعيد وأزيد لأنني أريد أن أكون واضحًا، ولن أمل ولن أغضب إذا نبهني أحد إلى ذلك!

هل تعرف الأفوكادو؟ لا!

هل تعرف (الأفوكادو)، وهي ثمرة فاكهة معناها (المحامي). ورغم أنها من الفاكهة فطعمُهَا ليس حلوًا.. كما أن البطيخ من الخضراوات رغم أنه حلو المذاق. أنا لم أعرف ما هي هذه الثمرة إلا بالصدفة!

فقد حدث أن نشرت صحف إسرائيل قبل الزيارة الثانية للرئيس السادات إلى إسرائيل أن زوجة رئيس الدولة إسحاق نافون هي التي سوف تعد للسادات قائمة الطعام. وهي تعرف جيدًا كل ما يحب وما يكره. وقالت: إنه لا يحب الأفوكادو!

سألت الرئيس: ما هذا الأفوكادو يا ريس؟

- والله ما أعرف.. تعال نسأل جيهان.

ونادى على زوجته السيدة جيهان، فقالت إنها تضع له الأفوكادو في «الصلطة»، ولكن الرئيس يستبعده كلما رآه!

ولما ذهبت إلى إسرائيل سألت السيدة أوفيرا نافون، وكانت مريضة في المستشفى: كيف عرفت أن الرئيس لا يحب الأفوكادو؟!

قالت: أنا لا أعرف، ولكن المخابرات هي التي قالت لي إنه حدث في مأدبة عشاء أقامها المستشار الألماني للسادات أن أتوا له بـ «الصلطة» فأسرع واستخرج الأفوكادو خارج الطبق.

ومنذ ذلك الحين، أصبحت أضع الأفوكادو في «الصلطة» لأنه لذيذ الطعم.. وهو دسم وبه زيوت ومعادن مفيدة تصلح للمعدة وتقوي القلب وتغذي الأعصاب. وعلماء التغذية يصفونه للمرضى الضعاف. وفي نفس الوقت يحذرون من الإسراف في تناوله لما فيه من دسامة.

لكن الأفوكادو ليست له شعبية.. وإنما هو طعام المترفين.. ولذلك فهؤلاء المترفون يأتون به من الخارج. وبعد حادثة الأفوكادو كان السادات يكرر كثيرًا: إن عيونهم وآذانهم مفتوحة علينا.. ولذلك كان خداعهم قبل حرب أكتوبر معجزة العصر!

ونحن لا نحترم موتانا!

مسكين مطربنا البديع عبد الحليم حافظ، لقد باعوه واشتروا قصورًا. قالوا وكالوا أكاذيب وخرافات. وكثيرون لا يعرفهم عبد الحليم حافظ حكوا حكايات حب وغرام وكراهية ومؤامرات ضدهم: وكبير المتآمرين عبد الحليم حافظ. وغراميات عبد الحليم وحبه وزواجه المزعوم؟!

والمطربة الصديقة داليدا التي انتحرت يوم 3 مايو سنة 1987.. حتى داليدا هذه لم تسلم من شباك الذئب – الرئيس الفرنسي ميتران.. كم أحبته وكم بكت على كتفيه وبين يديه.. ولم تتحمل كل هذا العذاب.. بينما تحمل الرئيس وعاش في ذكريات معشوقاته!

وأنا أعرف داليدا جيدًا، وكان لنا كلام وحوارات، ولا أدعي أكثر من ذلك. وأعرف تمامًا لماذا كانت أغنيتها: وجدت قلبي في بورتو فينو.. وكانت الأغنية ردًا على أغنية ألمانية تقول: أضعت قلبي في هايدلبرج.. هل أنا غنيت لها الأغنيتين؟ نعم. حدث. هل كانت جرأة مني أن أغني لها أغنيتها؟ أعتقد أنها كذلك. ولكنه لون من ألوان المرح البريء..

ولم أتطوع بحكايات وروايات عن صديقي عبد الحليم حافظ الذي قدمني للموسيقار محمد عبد الوهاب لكي يسمع صوتي، فإن أعجبه تركت تدريس الفلسفة والصحافة وتفرغت للغناء. وعبد الحليم حافظ هو الذي جعلني أفيق من هلوسة أن أكون مطربًا عندما استمعنا معًا – عبد الوهاب وعبد الحليم وكمال الطويل ومأمون الشناوي – إلى فتاة ريفية تغني في مكتب عبد الوهاب، وهو يقول لها: الله يا سلام!

وتلفتُ إلى عبد الحليم أقول له: ولكن صوتها مش حلو أبدًا..

فكان رده القاطع بمثابة طوق نجاة أنقذني من طوفان الغناء: ألا تعرف أن عبد الوهاب مجامل؟

فقلت: مجامل؟! يعني يقول لي صوتك حلو فأترك الجامعة والصحافة وأتسول!

وعندي أسرار، وكنا عبد الحليم وأنا مفتونين بفتاة واحدة، ولكننا لا نعلم، وهي لم تخدعنا وإنما كانت سعيدة بنا.. نحن الاثنين دون أن تفضح حبنا. حتى كان يوم وتضايقت جدًّا منها عندما أفشت عذاب عبد الحليم وراحت تستخف به!

وأخفيت رسائله إليها – احترامًا له واعترافًا بضعف الإنسان. فليس محبًا من لا ينتابه الضعف!

خايف أقول اللي في قلبي!

لا أعرف بالضبط ما الذي تركته الوحدة بين مصر وسورية ولا أعرف أثر الانفصال الذي وقع بين البلدين. كل ما أذكره أن صوت الرئيس عبد الناصر وهو يعلن الانفصال كان ذبيحًا مخنوقًا، تمامًا مثل الملك فاروق وهو يعلن طلاقه من الملكة فريدة. في ذلك اليوم كنا في بيوتنا بلا عمل - مصطفى أمين وعلى أمين وأنا، وجاء الانفصال وأسعدنا عذاب الرئيس وشعوره بالخيبة والفشل. وكان الانفصال ضربة قاتلة له. ومن المؤكد أن الرئيس قد قتل بالانفصال وتم الإجهاز عليه بالهزيمة العسكرية، ودفن يوم 28 سبتمبر سنة 1970. يرحمه الله إن كان هذا ممكنًا.

لعل ما أخذه الرئيس من سورية هو إدخال حرف (الباء) على كل الأفعال المضارعة فكان يقول: والله بنضرب. بنقتل.. بنشوف، وكالببغاوات انتقل حرف (الباء) إلى كل الأفعال المضارعة على لسان أعضاء الحزب الوطني والرسميين وكل المشتغلين بالسياسة، فالناس على دين ملوكهم.

وكثير من الكلمات انتقلت إلى لغتنا الصحفية والسياسية، وكلها مأخوذة من اللهجة الشامية واللبنانية، فقد سبقونا في ترجمتها

واستخدامها: العولمة والاستنساخ والآلية والحراك واللحلحة والحلحلة والزخم والتفعيل والاستمرارية وغيرها..

وربما كانت فيروز هي أول من استخدمت حرف الباء بدلاً من الفاء.. في أغنية (خايف أقول اللي في قلبي) من تلحين محمد عبد الوهاب. فالأغنية تقول: «أنا زارني طيفك بمنامي قبل ما أحبك» ووافق عبد الوهاب على التغيير. وكان عبد الوهاب بين الكورس الذين يرددون وراءها هذه الأغنية. وهذه الأغنية الجميلة كانت نشيدنا الوطني أيام عبد الناصر، فكنا نرددها: خايف أقول اللي في قلبي واللي في عقلي واللي في نفسي!

وكانت أشبه بالهتاف الذي كان يستخدمه الإيطاليون ليغيظوا موسوليني.. فكانوا يهتفون ويكتبون على الجدران كلمة (فيردي) وهو اسم الموسيقار مؤلف أوبرا عايدة.. وهم لا يهتفون باسم الموسيقار وإنما حروف كلمة (فيردي) معناها يعيش ملك إيطاليا!

ثم جاءت أغنية عبد الحليم حافظ: يا سيدي أمرك أمرك يا سيدي – تقدر تحط الحديد في إيدي أمرك يا سيدي.. خايف أقول اللي في قلبي.

ألف رحمة لعبد الحليم وعبد الوهاب!

ثم ضحك الجمهور؟!

كان الاهتمام على وجه والدتي عظيمًا، ليس اهتمامًا فقط وإنما هناك هم وقلق. وأراحتني أمي من التفكير في الذي أصابها عندما قالت: غدًا احتفال كبير في المدرسة. وقد أعددت لك ملابسك.. وإن شاء الله سوف تكون أحسن تلميذ.. وأشارت على بأن أذهب معها إلى الحمام لكي أستحم. وظلت أمي حريصة على أن تقوم هي باستحمامي وصب الماء على جسدي، حتى بعد ما اشتغلت بالصحافة والتدريس في الجامعة.. وعلى الرغم من أنني عرفت الحمام الساخن والدش، فإنني لم أفكر في أن يكون عندنا سخان ودش.. إما لأنني لا أهتم كثيرًا بذلك.. وإما لأن أمي حريصة على أن تقوم بهذه المهمة. فأنا بالنسبة لأمي ما زلت صغيرًا!

وكنت قد نسيت أن عندنا مسرحية وأن لي دورًا فيها.. وكلمة «دور» هذه لم أعرفها في ذلك الوقت ولا سمعت أحدًا قالها.. وإنما قيل لي: يجب أن تقف هنا.. هنا بالضبط.. وتتجه إلى الضيوف، ومن بين الضيوف والدك.. وتمسك هذا السيف وعندما يشير إليك المدرس تقول هذه العبارة: اسكت! ثكلتك أمك! يعني أن أظل واقفًا ساكتًا تمامًا وورائي زملاء آخرون يقولون كلامًا لا أعرفه. هذا يقول، وهذا يرد

عليه. وهم أيضًا يجب أن ينتظروا التعليمات من المدرس.. هو الذي يقول لهم: قولوا. وقال لي المدرس: اسمع.. افرض أنك تريد أن تشتمه بهذه الطريقة، انطق هذه العبارة وكأنك تشتمه.

وكان المدرس صارمًا. وأقنعني بأن أشتم من لا أعرف وأن أغضب. ولكن لماذا أقول جملةواحدة ويقول زملائي كلامًا طويلاً من الشعر.. لماذا؟ مع أنني أول المدرسة وأحسن تلميذ فيها. وترتيبي الأول. وكان للمدرسين منطق واحد غريب، وهو أنهم لا يريدون أن يشغلوني بأي شيء عن المذاكرة وأن أكون أول المدرسة.. ولذلك أعفوني من حصص الألعاب الرياضية.. وحفظي القرآن لأنني قد حفظت القرآن قبل أن ألتحق بالمدرسة.

وقلت الجملة مع إشارة المدرس.. ومضت المسرحية.. مسرحية «معن بن زائدة».. وموضوع المسرحية هذه الشخصية التي تتسم بالحلم والتسامح.. والمسرحية تقوم على أن بعض شيوخ العرب تراهنوا على من يستطيع إغضاب معن بن زائدة، فأرسلوا إليه من يشتمه ويستفزه فإذا نجح فله مكافأة كبيرة. ولم يستطع أحد، وتنتهي المسرحية بأن يبقى معن بن زائدة مثلاً رفيعًا في الحلم والتسامح وسعة الصدر والرحمة.

أما لماذا ضحك الجمهور وصفق ووجدت نفسي في حضن والدي.. فليست المسرحية الغاضبة وإنما غلبني النوم وأنا واقف ساعة في مكاني لا أبرحه ولا أتحرك، وكدت أسقط على الأرض فضحك الناس وصحوت.. وعدت إلى البيت لكي أنام!

أنا هويت وانتهيت!

لم أر أحدًا يغني من البلكونة.. لا رأيت حفلات ولا أفلامًا.. لعلي رأيت أن المطرب أو أن الغناء يجب أن يكون عاليًا.. فوق مستوى الجمهور. هل هذا هو المعنى. لا أعرف، ولكن وأنا طفل في كل مرة أطلب من أحد الفلاحين أن يغني؛ فإنني أسارع إلى البلكونة لكي أسمعه من فوق.

ولم أحاول ولا مرة أن أترك أحدًا يغني من فوق وأنا أستمع إليه من تحت. وفي مرة جاء دوري في الغناء وجلست على مقعد.. ثم وقفت فوقه.. وغنيت: أنا هويت وانتهيت.. ولا أعرف من صاحب الصوت. وإنما عرفت الصوت وسهولة الأداء. وغنيت. ولابد أن صوتي كان نحيلا.. كنت (أسرسع).. ولا يهم. فأنا أريد أن أغني وغنيت.. وبعد أن فرغت من الأغنية تقدم أبي لطيفًا رقيقًا ضاحكًا وقال: الله.. الله!

وأحببت هذا اللطف وهذا التشجيع من أبي. ولو كانت أمي في البيت في تلك اللحظة ما جرؤت فهي لا تريدني أن أنشغل عن القراءة والدراسة بأي شيء.

ولكن والدي اقترب واحتضنني وقبّلني وقال: ما شاء الله.. صوتك جميل وأذنك الموسيقية أكثر إحساسًا.

ولا أدعي أنني فهمت هذه المعاني.. ولكن أسعدني أن يكون أبي راضيًا أو سعيدًا..

وظلّت هذه الأغنية عميقة مستقرة في أذني طول حياتي. فكنت إذا أردت أن أمتحن صوتًا جديدًا.. طلبت إليه أن يغني: أنا هويت..

وهذه الأغنية من أكثر الأغنيات القديمة حظًا. فقد غناها محمد عبد الوهاب والسنباطي وسعاد محمد وإسماعيل شبانة وكل الفرق الموسيقية.. وغناها الفنان التشكيلي حسين بيكار. وغنيتها أيضًا في المدرج 78 بكلية الآداب جامعة القاهرة وكان المستمع زميلاً جميل الصوت هو جمال أبو رية وكان كاتبًا لقصص الأطفال..

وغنيتها لعبد الحليم حافظ والموسيقار كمال الطويل والشاعر مأمون الشناوي، وأجازوني مطربًا. وتشجعوا وذهبوا إلى محمد عبد الوهاب ليسمعني فإذا استراح إلى صوتي وأدائي تركت الأدب والصحافة وتفرغت للغناء!

محمد: لأول وآخر مرة!

بالصدفة اشتغلت بالصحافة. فقد كان أملي أو كان في نيتي.. أو كانت رغبتي في أن أظل مدرسًا للفلسفة، أو لأنني أعرف لغات عديدة أن أعمل في الخارج. وإن كنت في ذلك الوقت لا أعرف بالضبط معنى «الخارج». فالذي حدث أن والدي مات. وفجأة وجدت أنه لا بد أن أسأل. وسألت واستشرت أساتذتي: د. شوقي ضيف والأستاذ الخضيري والأستاذ مصطفى عبد الرازق ود. مصطفى حلمي ود. عبد العزيز عزت ود. عثمان أمين - وكان من رأيهم أن أمضي في سلك التدريس الجامعي لأسباب رأوها. وأسعدني ذلك. لولا أن الصدفة قطعت هذه السلسلة الجامعية: معيد فمدرس فأستاذ مساعد فأستاذ فعميد..

فقد كنت في زيارة لزميل في الفلسفة، محمد شرف، الذي صار بعد ذلك وكيلاً لوزارة الإعلام. وعرفت منه أنه ينشر قصصًا في جريدة «الأساس»، جريدة الهيئة السعدية التي يرأسها فهمي النقراشي باشا. وطلب مني أن أبدأ بنشر قصة. وكانت عندي قصة. ونشرتها في صفحة كاملة. ثم طلب مني قصة أخرى.

وفوجئت بالسيد فؤاد زكريا وهو خريج قسم الفلسفة وفهمت منه أن من يكتب قصة يستحق عليها أجرا. وطالبت بالأجر من رئيس التحرير وغاليت. فلم أكن مثل أستاذنا العقاد الذي يتقاضى خمسة جنيهات عن

المقالة في مجلة «الرسالة» ورأى رئيس التحرير أنني طلبت أجرًا كبيرًا. وفجأة قال: ولماذا لا تعمل محررًا معنا. وتتقاضى عشرين جنيهًا..

وهذا هو أول عرض مادي في حياتي. وسألني رئيس التحرير: أنت اسمك إيه. قلت: أنيس منصور. قال: اسمك بالكامل؟ قلت أنيس محمد منصور.

– آه.. اذهب إلى الأستاذ عزيز مشرقي مدير الإدارة. واحذف كلمة محمد. لأنه متعصب. وتم تعييني. وكتبت في الصفحة الأخيرة التي كان يشرف عليها الأستاذ موسى صبري ومعه الفنان الكبير عبد السلام الشريف. وتركها موسى صبري للعمل مع الأستاذ جلال الحمامصي في إصدار جريدة «الزمان» المسائية. وفوجئت برئيس التحرير يقول لي: اكتب اسمك بالكامل. واندهشت. وكتبت. وكانت المرة الأولى والأخيرة التي أكتب فيها وأوقع بإمضاء أنيس محمد منصور. ومع ذلك فوجئت بالشيخ أبو زهرة في محاضرة في نقابة الصحفيين يهاجمني ويقول: هذا القبطي الدسيسة إنني أعرف أن اسمه أنيس جرجس منصور ويدعي أنه مسلم! وتصدى له الأساتذة أمينة السعيد وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي يؤكدون أنني مسلم ويتساءلون: فماذا لو كان مسيحيًا.. ما دخل الدين في الذي يكتبه؟

وعندما عملت في «أخبار اليوم» كانوا يعاملونني على أنني قبطي.. وكان الأستاذ محمد التابعي يقول: شيء غريب في مؤسسة «أخبار اليوم» إنهم يصرون على أن الزملاء موسى صبري وكمال الملاخ وحمدي فؤاد وسعيد سنبل وعبد العزيز فهمي والخطاط يوسف وهبي كلهم مسيحيون وأن أنيس منصور مسلم. الحقيقة.. الحقيقة أنهم جميعًا أقباط، ويوسف وهبي يهودي!

لا تعرف بطرس؟!

كتبت أوراقًا من حياتي في مجلة «آخر ساعة» وحكيت عن أيام الطفولة والشباب والسنوات الأولى في الحياة الصحفية.. أو الصحافة بلا حياة والحياة بلا صحافة.. وفوجئت بدكتور بطرس غالي أمين عام الأمم المتحدة قد كرر دعوته أن أنزل معه في مسكنه بالأمم المتحدة. وحدثني عن جمال المكان وكل المغريات.. وفجأة سألني: يا أنيس تعرف ميشلين؟ قلت: الله.. وأنت تعرفها؟ قال: نعم. ولم أرد فقد تضايقت..وحكى لى د. بطرس كيف أنه كان يعرف ويحب.. ولم أصدق!

أما هي فميشلين برتداي نمساوية وكان والدها طبيب أسنان الملك فاروق. جميلة رشيقة رائعة. وكنت مفتونا بها. وكان عندها كلب ضخم جميل أيضًا. وكانت تترك الكلب في حمايتي وعنايتي وتذهب لتقرأ نشرة الأخبار باللغة الفرنسية وباللغة الألمانية.. وكنت أظن أيامها أن الطريق إلى قلب المرأة هو كلبها. وتشاء الصدفة أن أسافر إلى إسرائيل وأن أتناول عشائي مع وكيل وزارة الخارجية وقلت: أريد خدمة أريد أن أعرف أين ميشلين برتداي. وسألني يهودية؟ قلت : نعم فقال: بعد العشاء سوف أعرف تاريخ حياتها كله. وفعلا بعد العشاء جاءته ورقة طويلة تحكي قصة حياتها.. زواجها وطلاقها

وأولادها.. وعنوانها الجديد.. وأنها تقيم الآن في مدينة فيفي بفرنسا. وراح قلبي يدق.. فقد مضى على علاقتنا أكثر من أربعين عامًا. وكل ما أريد هو أن أسألها إن كانت تعرف بطرس غالي أو كانت لهما علاقة وأن وأن.. وجاء صوتها من بعيد: الو..

سألت: ميشلين؟

قالت: نعم.

قلت: أنا أنيس منصور.

قالت: أوه أنيس.. إزيك.. إنت فين.

وكل ما عندي من دم قد تغير لونًا وعرقًا إلى وجهي وسألت:

هل كنت تعرفين واحدًا اسمه بطرس؟

– لا..

– بيتر.. بيتر.

– لا..

– بطرس غالي..

– لا..

– سكرتير الأمم المتحدة..

– أبدا!

يا سعادتي بهذا الذي قالت واتصلت ببطرس غالي ونقلت إليه أنها لم تسمع به ولا عرفته في أي وقت هذه الحكاية كررتها للرئيس

مبارك على مسمع من شيخ الأزهر وبطريرك الأقباط والسفير الأمريكي ورئيس الوزراء. ثم عدت فرويتها مرة أخرى للرئيس عيزرا فايتسمان رئيس إسرائيل عندما سألني عن صديقي بطرس غالى.. فرد أخوه رءوف غالى زميلي في مجلس الشوري: أنه لا صديقته ولا حاجة الاثنان يشنعان على بعضهما البعض.. وضحك رئيس إسرائيل قائلاً: إذن بطرس من زمان بيحب اليهود! فزوجته يهودية مصرية..

إذا مات النحل انقرضنا بعد أيام!

عدد من علماء بريطانيا، يؤكدون أن أعمدة تقوية التليفون المحمول قد قضت على العصافير وعلى طيور أخرى.. لأن الانبعاث الكهربي المغناطيسي، يؤثر على البرامج الملاحية لهذه الطيور، وذلك بأن تربك ما فيها من برامج غريزية.. ولدى العلماء أدلة على ذلك. وعلماء يرون أن المحمول نفسه فيه خطورة على القلب وعلى الكلى. ولكن نظرًا لما تنفقه شركات المحمول من أموال لإسكات هذه الأصوات، فإنه لا يكاد واحد يتحدث عن الأضرار، حتى يظهر عشرات يؤكدون زيف هذا الرأي!

وأحدث ما اهتدى إليه العلماء الإنجليز، أن أبراج التقاط وتقوية استقبال المكالمات وتوجيهها قد قضت على النحل.. وقاموا بتجارب عديدة ونقلوا خلايا النحل إلى جوار هذه الأعمدة.. وتناقص عدد النحل الشغال وتساقط ميتا. وعندما فحصوه لم يجدوا مرضا عضويًا. وإنما سكتة حيوية. والضحايا بالملايين وقد يبدو هذا الخبر تافهًا إذا ما قورن بالضحايا الذين يموتون في الحروب وفي الكوارث والأمراض.

ولكن يجب أن نتذكر ما قاله الفيزيائي العظيم أينشتين إذا مات النحل، فلن يبقى أمام البشرية إلا أربعة أيام أو خمسة!

لماذا؟ لأن النحل يقوم بنقل حبوب اللقاح من الأشجار والأزهار والنباتات. وبغير حبوب اللقاح هذه فلا ثمار. وإنما عقم يؤدي إلى هلاك الإنسان. والتلقيح عن طريق النحل عمل شاق. فمثلا لكي تفرز النحلة واحدًا على اثني عشر من ملعقة شاي صغيرة، فإنها تحتاج إلى زيارة 500 زهرة. أما إفراز ما يعادل ملعقة شاي صغيرة فتحتاج النحلة إلى الطيران 55 ألف كيلو متر.. أما اهتزاز أجنحة النحلة ذهابًا وإيابا فهي 11400 في الدقيقة الواحدة. وعسل النحل هو أهون ما تقوم به النحلة من أجل بقاء البشرية - والله أعلم!

الفن أطول عمرًا من السياسة

إلا هذه السيدة التي بلغت من العمر قرنًا وعامًا واحدًا. فالمنظمات اليهودية، التي تتصيد النازيين في كل مكان، وقفت عندها في حيرة، ولم تذهب إلى أبعد من استنكارها واحتقارها.

ولا تنس فضلها التاريخي، فقد كانت مخرجة ومصورة لكل الأفلام التي مجدت النازية في سنواتها الأولى. ولولاها ما وجد المؤرخون هذه الكنوز من الصور والذكريات. وكانت على صلة قوية بهتلر، تدخل إلى غرفة نومه. وأشاعت عن نفسها أنها عشيقة هتلر حتى تحصل على كل ما تريد من الأفلام والكاميرات، فكان لها ما أرادت.

إنها السيدة ليني ريفنشتال. وتقول في مذكراتها التي ظهرت أخيرًا: إنها كانت مولعة بهتلر، وإنها كانت مفتونة بكتابه (كفاحي). ومنذ قرأت الكتاب ورأت الساحر ارتبطت به نهائيًا، وأخرجت له عددًا من الأفلام آخرها (انتصار العقيدة) و(انتصار الإرادة)، و(يوم الحريةسنة 1935).. وذهبت ليني إلى أمريكا ولقيت ما تستحقه من الإهمال واللامبالاة والاحتقار.

ونشرت إحدى الصحف. وما جدوى أن تحتقرها. إنها كبرت وأصبحت غير قادرة على تحمل أي نوع من الألم.. ثم إن الذي يعاقبها الآن قد اختار الوقت غير المناسب. فقد مات كل شيء.. هتلر والنازية. وإذا كانت ما تزال حية فهي أصبحت عجوزا مرتجفة تشير إلى شيطان قد مات. فلا عقاب لها أقسى من الشيخوخة ومن النظرات الكارهة لها في كل مكان!

سألتها إحدى المنظمات الصهيونية: هل أنت نادمة؟ فأجابت: أكذب لو قلت إنني نادمة على أي شيء؛ فقد أديت واجبي بكل إخلاص ولست إلا فنانة عاشت في قلب حدث جليل.. كنت مصورة ومخرجة ومتفانية في عملي. ولا علاقة لي بالمضمون السياسي!

وسألوها وهي على فراش الموت: هل ترين أن ما قام به هتلر يستحق إعجابك؟

وكان جوابها: لا شأن لي بالسياسة. أنا فنانة عاشت وماتت فنانة. ولا يمكن لأحد أن يلغي دوري التاريخي - حتى أنا لا أستطيع!

كل شيء إلا اسمي!

سافرت مع صديق أديب إلى بيروت، لنرجو أحد الناشرين بأنه في حالة ما إذا نشر له كتابه. أن يترك اسمه على الغلاف. لأنه من الممكن أن ينشر الكتاب منسوبًا إلى مؤلف آخر حتى لا يدفع للمؤلف أجرًا. فكان ذهابنا له إقرارًا من المؤلف بأنه لا يريد فلوسًا، فقط أن يظل اسمه على الغلاف – أي أنه لا يرد القضاء وإنما يطلب اللطف فيه!

ووافق الناشر على هذا الالتماس!

ولم أتصور لحظة أنني سوف أقع في نفس الكارثة، فقد حدث أن ترجمت رواية رائعة اسمها «الجائزة» للأديب الأمريكي الكبير ارفنج والاس. الرواية موضوعها أين كان الفائزون بجائزة نوبل عندما تلقوا هذا النبأ.. كانوا فاضحين مفضوحين. والمؤلف بالغ الحرفية والجمال. طبعا هناك صفحات مثيرة. ولكن المؤلف لم يحشرها في مسار الأحداث أو مسارات الشعور والحبكة الروائية. والرواية في 900 صفحة..

وتصادف في ذلك الوقت أن هاجم البرلمان المصري رواية «أنف وثلاث عيون» للكاتب الكبير إحسان عبد القدوس.. ووصفوها بأدب

الفراش.. وهاجمها الأستاذ العقاد. ولا أرى أن العقاد كان على حق. وإنما العقاد كان يعترض على المؤلف أكثر من اعتراضه على إبداعاته الفنية.

وفي هذا الجو الرقابي المخيف كان لابد أن أقوم أنا بحذف الصفحات الجنسية من هذه الرواية. فحذفت مائتي صفحة.. وجاءت الرقابة وحذفت مائة وخمسين صفحة!

وحاولت أن أربط الأحداث حتى تظهر الرواية بعد الحذف مقبولة. وكان من الصعب أن أوقف طبعها ونشرها بعد ذلك. وظهرت الرواية. وحذفت الرقابة اسمي من الغلاف. وتضايقت جدًا. وإن كنت أتمنى ألا يظهر اسمي – أي أن أحذفه أنا وليست الرقابة.

ومنذ أيام فوجئت بالرواية في الأسواق وأدهشني ذلك.. وذهبت للناشر فقال: إنها فولكلور مجهول المؤلف. فقلت: ولكنك تعلم. فقال: نعم.. ولكن لا تنس أن الكتاب الذي أعدت طباعته مجهول المترجم..

ولا ألومه. ولكن اتفقت مع ناشر آخر أن أعيد نشر الرواية كاملة، فلم تعد عندنا رقابة بهذه الغباوة والشراسة والجهل والعداء للحرية والفن.

ولما أعطاني الناشر نسخة من الطبعة الجديدة فوجئت بأنه أعاد إليها كل ما حذفته الرقابة فيما عدا اسمي؟!

أعوذ بالله من يوم لا أقول فيه: أنا!

قرأت تعليقًا لأحد القراء الأفاضل يقول: يا أخي وجعت دماغنا. ولم أكمل العبارة. ولا عرفت ما الذي أوجعه مني. ولكن بادرت قائلاً: فعلا معك حق لقد أوجعت دماغك بالكلام عن أنا.. وأعوذ بالله من يوم لا أقول فيه: أنا.. قرأت كتبت فكرت أكلت شربت.. أنا وإنا لله وإنا إليه راجعون..

ولابد أنني أوجعت دماغي أنا أيضًا في الكلام عن ذكريات تاريخية مع كبار الأدباء والفلاسفة والمفكرين والزعماء. أي عن التاريخ.. عن الذي حدث والذي أحدثوه وعن امتنان وعقوق الناس لهم وسوء الفهم وسوء التقدير. وكيف مرضوا وكيف ماتوا ولسوء حظي شهدت الوفاة وأوجعني ما يوجع أي صديق أو مؤرخ أو مفكر.

كيف لا أقول آه متلمسًا جانبي عندما أرى أستاذنا العقاد طريحًا أطفئت في وجهه كل الأنوار.. كيف أرى الحكيم هكذا مكوّمًا وإحسان عبد القدوس.. وكيف رأيت السادات في لحظاته الأخيرة.. وكيف لا أقول: أنا تمزقت حزنًا وأسى على مخلوقات فذة أبدعها الله، لعلنا ولعلهم..

كيف أراني قد وافتني منيتي إلا قليلاً عندما ماتت أمي يرحمها الله.. وكيف أراها فأراني ميتًا إلا قليلاً. والقليل يقرأ الفاتحة ويذوب دمعًا ولا يزال – والله على ما أقول شهيد – منذ 37 عامًا كأنها ماتت بالأمس.. أو كأنها لم تمت.. ويوم الخميس من كل أسبوع أقف باكيًا.. وأطلب من السائق والحارس أن يذهبا بعيدًا حتى لا يراني أحد وأنا أبكي على أمي.. وأنا أعلم أنها ليست هناك ولا أحد هناك.. ولكنها هنا في قلبي يتقلب ويتوجع وأتوجع.. بعضي يبكي على بعضي.. وليسامحني الله يوم وقفت في الكعبة أدعو الله أن تموت أمي قبلي حتى لا تتعذب من بعدي. واستجاب الله، فهل كنت صادقًا أو أنانيًا طلبت لنفسي طول العمر ولو يومًا واحدًا بعدها. ولكن الله أبقاني شاهدًا على فداحة خسارتي فيها وحزني عليها – آسف إن كنت أكثرت من أنا. فلا أعرف كيف أقول كل هذا، ولا أقول أنا!

كيف ظل مخلصا لزوجته؟!

قد لا يعرف الكثيرون أن الرئيس الأمريكي ريجان ابن نكتة. فالذين يعرفونه يقولون إنه عبقري في القفشة والنكتة والتعليقات الحادة المرتجلة. ويوم كان مريضًا فوجئ بأن عددًا من الممرضات والأطباء قد التفوا حول سريره وتساءل إن كان سيموت؟ فقالوا: بل نحن جئنا لكي نموت من الضحك يا فخامة الرئيس. نحن لا نعرف كيف تحول أكثر العبارات جدية وأشد المواقف حزنا إلى نكتة؟!

ويرد قائلاً: لو كنت أعرف هذه الموهبة لتفرغت لإضحاك الشعب الأمريكي!

وكان رونالد ريجان، 93 عامًا، ممثلاً وسيما متواضعًا. ولكن هذا الممثل كان يخفي وراءه رئيسًا قويًا ناضجًا بارعًا، لأمريكا مرتين.. وفي يوم قسم اليمين أمام الشعب الأمريكي نظر إلى يمينه ويساره قائلاً: غلطتكم أنتم الذين جعلتموني رئيسًا عليكم.. هذا اختياركم وعقابكم أيضًا..

وبعد أيام سوف تظهر مذكراته التي كتبها بهدوء لسنوات حكمه لأمريكا. وفيها يعترف بحبه لزوجته الذي دام 29 عامًا من الإخلاص

الصادق. ومما قاله تعليقًا على سلوكيات ولده وابنته: ربما كنت زوجًا لا بأس به. ولكن كل البأس في أن أكون أبا.. فأنا لم أدرس ذلك بصورة كافية!

ويقول إن أكبر لحظة حرج في حياته عندما زاره ولي عهد بريطانيا. فقدموا له الشاي على الطريقة الأمريكية.. كوب الشاي وبه كيس الشاي. وفي تلك اللحظة شعر ريجان بالفضيحة. أما الأمير فأمسك الكوب ولم يعرف ماذا يصنع بكيس الشاي. فما كان من الأمير إلا أن وضع الكوب بدون أن يشرب!

ويقول إنه شديد الإعجاب بالمرأة الحديدية مرجريت تاتشر. وقد ساعدها كثيرًا في حربها ضد الأرجنتين عن طريق الأقمار الصناعية والمخابرات. وقال إنه طلب من حكومة الأرجنتين ألا تدخل في الحرب من أجل أن يتربح منها رئيس جاء من انقلاب عسكري!

ويقول ناشر هذه المذكرات: لو كنت أعرف أن الرئيس ريجان يكتب مذكراته لسألته سؤالا لا يخطر على البال: كيف تكون أقوى وألمع رجل في الدنيا وتظل مخلصًا لزوجتك صادقًا في إخلاصك؟!

طبيعي: قداسته لا يرد!

كنت أول من قابل الدالاي لاما عندما طردته الصين من التبت. وهو الأب الروحي. ويختارونه طفلاً ويظل حاكمًا روحيًا حتى يبلغ الثانية والعشرين من عمره وبعد ذلك يختفي. أين؟ لا نعرف. يقال يقتلونه ويقال يحشرونه بين عامة الناس بعد أن يختار له الكهنة اسمًا آخر.

وعندما أخرجوه من بلاده ذهب إلى جبال الهملايا في الهند. وذهبت إليه محمولا على الأعناق مريضًا جاء من مصر يتبرك به ونيابة عن ملايين المرضي في مصر - هكذا ادعيت ووجد هو صعوبة في تصديقي. ثم صدقني. وكان رئيس وزرائه يتكلم الفرنسية. وهو الوحيد الذي سهل لى مهمة لقاء الدالاي لاما والسيدة والدته.

وكان المساكين من شعبه الذين يؤمنون به ينامون على الأعشاب. أما الفيلا التي استقر فيها فكان إذا أطل عليهم من البلكونة ذاب الناس دموعًا ولوعة. إنه رجلهم المقدس الذي لا شريك له.

ولما كتبت عن هذا اللقاء تلقيت من السفارة الصينية في مصر ما معناه: قل للدالاي لاما يحمد ربنا. فقد كان من المفروض أن يقتلوه، فلما طردناه أطلنا عمره!

وتابعت أخبار الدالاي لاما.. وتابعت الجهود الجبارة التي تبذلها أمريكا لكي تلعب بهذا الرجل الغلبان ضد الصين.. علموه الإنجليزية وقالوا على لسانه الأمثال والحكم ونظرياته في السياسة الدولية.. ولم يسكتوا عن بركاته وبعد نظره. وكيف أنه توقع كل شيء حدث في الصين بما في ذلك الثورة الثقافية عجبي!

وفجأة حصل الدالاي لاما على جائزة نوبل للسلام. ولا بد أن اللجنة التي منحته الجائزة والمليون دولار قد تحدثت عن أثره القوي في مسار الأحداث في التبت وفي الصين. أو في الصين فقط.. وحملته الطائرات يدعو للسلام الأمريكي في التبت والصين وفي الدنيا كلها.

وظهرت كتب له وكتب عنه، واخترع له الأمريكان موهبة وعبقرية فذة. كيف؟ هذا ما حدث ويحدث كثيرًا في أماكن كثيرة من العالم الثالث. فصناعة الزعماء من أهم الصناعات الأمريكية.

وأتذكر أنني أرسلت للدالاي لاما خطابا – من زمان. وبمنتهى حسن النية –حاولت أن أذكره بما كان بيننا من حوارات ونكت. فكيف يذكرني؟ ولم أكن حسن النية، إنما أردت أن أبعث له بخطاب لأتلقى ردًا أنشره. ولم يفعل.

خطوة صغيرة لإنسان.. كبيرة للإنسانية!

جلست إلى د. أسامة الباز وهو يعد الخطبة الإنجليزية التي سوف يلقيها الرئيس السادات. واقترحت عليه أن يضع فيها نفس العبارة التي قالها رائد الفضاء نيل ارمسترونج عندما هبط إلى القمر. فقال: هذه خطوة قصيرة لإنسان طويلة للإنسانية!

وقد أخطأ ارمسترونج فالموقف رهيب ولذلك قال: هذه خطوة قصيرة لإنسان طويلة للإنسانية. واستحسن د. أسامة الباز هذه الفكرة ليقول: إن خطوة السادات إلى القدس قصيرة لإنسان طويلة للإنسانية التي تحلم بالسلام. وأثناء العشاء في مدينة هيستون، وهي المدينة التي تنطلق منها سفن الفضاء إلى القمر والكواكب الأخرى، لم أجد الرئيس السادات قد قال هذه العبارة. وفي رأيي أنها كانت عبارة مناسبة وسوف يرحب بها الجمهور الأميركي.

وسألت الرئيس: سيادة الرئيس أنت لم تعجبك هذه العبارة. فقال: أية عبارة؟!

وقلت له إنني اقترحتها على د. أسامة فقال: إن الخطبة قد خلت تمامًا من هذه العبارة.. وهي عبارة حلوة وذكية.. وكانوا سيعجبون

بها. وعرفت أن وزير الخارجية إسماعيل فهمي وجدها سخيفة.. وحذفها. أما لماذا؟ لا أحد يعرف. ولكن ليس لديه حس أدبي أو علمي أو يفهم النكت السياسية والبلاغية. وغضب الرئيس السادات وقال لي: يا أخي إذا كانت عندك مثل هذه الفكرة قل لي عليها:

وفي اجتماع سياسي تحدث الرئيس عن مبادرة السلام وأثرها في العالم ثم قال: وعلى رأي أنيس منصور. ثم ذكر العبارة. ولم يسكت وإنما قال: ولكن أحد السخفاء حذف هذه العبارة، مع أنها في مكانها تماما. وغضب إسماعيل فهمي من الرئيس ومني. ولكن الرئيس أقنعه بأن المقصود هو الموظف الذي كتب الخطبة؟

ثم عاد وذكر هذه العبارة في لقاء آخر وقال: جملة حلوة.. ولكن هناك عداء بين بعض الناس والجمال الأدبي والذكاء السياسي والمجاملات التي يقتضيها المقام.

وغضبت أنا وقلت للرئيس: سيادة الرئيس في عرضك. لقد غضب مني كثيرون.

فكان يضحك ويقول: هاها.. شفت أن السياسي مثل الحاوي يضع البيضة ثم يخرج كتكوتًا من جيبك، هاها.. هاها!

إنهم لا يكفون عن الكلام!

كنت في مهمة سرية مع د. بطرس غالى وزير الخارجية. وكان لابد أن نتوقف في السودان وإثيوبيا وكينيا والصومال. وفي إثيوبيا رفض المطار أن تهبط الطائرة. وراحت تدور فوق المطار حتى نفد الوقود. وكان نزولها اضطراريًا. فقد رفض الرئيس مانجستو مريام استقبال د. بطرس غالى. ووجدنا السفير ومعه بعض السندويتشات في انتظارنا. واتجهنا بعد ذلك إلى الصومال وقابلنا سياد بري عند الفجر. وحاولت الهرب، ولكن بطرس غالي قال: إياك أن تهرب فقد أبلغت الرئيس أنك المستشار السياسي للرئيس السادات. وذهبت مع بطرس غالي. وجلست وراءه متواريًا، فالنوم قد غلبني وأنا لا أحب السهر، وأنام عند منتصف الليل ولساعات قليلة. ولم أعرف بالضبط ما الذي يقال. وكان د. بطرس غالى يخبط حذاءه في حذائي مخافة أن أنام.

وفي الفيلا التي كنا نقيم فيها. كان الموظفون يتعاملون معي على أنني الوزير بسبب أنني أتكلم الإيطالية التي يتكلمونها؛ فإذا انقطع تيار الماء أسرعوا ينبهونني إلى ذلك، ولا يقولون للوزير.. وإذا أعدوا الطعام سارعوا يدعونني ولا يدعون الوزير. ولم أفلح في إقناعهم بأنه هو الوزير.

وفي كينيا، حاولت أن أهرب من اللقاء مع الرئيس، ولكن د. بطرس غالي قال لي: سوف تجد لقاء ممتعًا. صدقني. سوف أقول لك السر. سوف أتكلم مع الرئيس كما يتكلم السفير الأمريكي مع الرؤساء في العالم العربي..

وقابلنا الرئيس وإذا ببطرس غالي يبدأ الحديث هكذا. فخامة الرئيس إنما جئت أستمد الحكمة والصواب منك. فخطبك وأحاديثك مقررة علينا. لابد أن نقرأها كطلبة. وخصوصًا خطبك الأخيرة.

دعني أصف لك رد فعل هذه العبارات الضخمة على الرئيس الكيني: البهجة والسعادة وكانت في يده عصا ذهبية، وكان ينقلها من اليد اليمني إلى اليسرى ويتراجع في مقعده الذي يشبه العرش. وأخيرًا وضع العصا الذهبية الغليظة على الأرض وتراجع في مقعده وامتدت ساقاه إلى الأمام..

ثم عاد د. بطرس غالي يشيد بخطبه الأخيرة. ويقول: هذه هي الحكمة. وهذه هي السلاسل الذهبية في فن الحكم! ولما سألت د. بطرس غالي إن كان قد قرأ كل هذه الخطب، قال ضاحكًا: وحياتك لم أقرأ خطبة واحدة. أما الخطبة الأخيرة فلا أعرفها أيضًا. ولكن كل رؤساء العالم الثالث لا يكفون عن الكلام.. هاها..

- هاها..

وتمنيت للسعادة ألا تطول؟!

طالت رحلاتي بين المكتبات والمقاهي في باريس. هل أنا مستمتعٌ بكل ذلك؟ الجواب: لا.. وإن كنتُ حريصًا على أن أذهب مبكرًا وأملأ صدري ببخار البن ورائحة «الكروسان» الساخن. والوجوه الحلوة وابتسامة من هنا ورد عليها من هناك.. إنه مهرجان صباحي في كل مقاهي باريس.. أما المكتبات فدخلتها من أبواب مختلفة من أجل تنويع في العناوين والأغلفة.. هل مللت؟ الجواب: نعم.. فلم يكن السبب الحقيقي لتكرار هذه الزيارات إلا محاولة لنسيان الألم الحقيقي الذي يزلزل أعماقي. فزوجتي مريضة والمسافة بيننا حوالى تسعين كيلو مترا ذهابًا ومثلها إيابا. صباحًا ومساءً والذي أراه يوجع القلب، والذي أسمعه يدوخ العقل. والأملُ في الله عظيم..

ومللت وسائل الهروب المحدودة وهي الانشغال والاشتغال والتشاغل.. وكلها مسميات للهرب.. ولم أجد أمامي إلا حلاً واحدًا. وهو أن أنتسب إلى جامعة السوربون شهرًا أو شهرين.. واخترت موضوعًا فلسفيًا، وهو «علم الجمال» أو فلسفة الفن. هل أنا في حاجة إلى ذلك؟ هل هذا هو الذي ينقصني؟ أما أنني في حاجة إلى جديد في أي شيء فلا شك في ذلك، ولا أدَّعي أنني عرفت كل النظريات الفلسفية في عالم

الجمال. فلم أدرس كل ما قاله الفيلسوف الألماني هيجل والفيلسوف الإيطالي كروتشه ولا المفكر الإنجليزي بيرنارد بوزانكت وغيرهم. ولابد أن أنشغل بشيء ولابد أن أنحني لكل ما لا أعرف. والذي لا أعرفه كثيرٌ جدًّا..

وذهبت وحصلت على موافقة للانتساب. وعرفت مواعيد المحاضرات. وذهبت إلى القاعة المحددة كأنني أرى قاعة جامعية لأول مرة.. أما الهمس في كل مكان فهو الجديد فلا أحد يتكلم وإنما الكل يهمس لا في القاعات فقط وإنما في الطريق إليها..

دخلت القاعة وجلست في المؤخرة. أما الصفوف الأولى فشبان صغارٌ وشابات والإرهاق على وجه الجميع يؤكد أنهم طلبة سهروا وما زالوا يسهرون. ولم يكن العدد يتجاوز العشرين. ولم يزد. وجاء الأستاذ واتجه إلى مقعده. وفي هدوء، وكأنه هو الآخر يهمس ويتكلم، وكأنه لا يرى أحدًا. وانتقلت إلى الصفوف الأولى لكي أسمع الأستاذ. ولم يشعر أحد بأنني كنتُ هناك ثم زحفت إلى هنا. أو أنني موجود.. ولا أظن أنني وعيت كل الذي قال. وإنما اجتاحتني نشوة. لا أعرف بالضبط ما هي! وإنما هي مزيج من التواضع والاحترام والتشبع والامتلاء. مع أن هذه «الوجبة» لم تكن دسمة. وإنما عودتي إلى هي مزيج من التفكير والتعمق والاستغراق والسعادة بكل ذلك..

وتوالت الأيام والمحاضرات، ولم أفق من نشوتي ولم أحلم بأن تطول الدراسة لأن معنى ذلك أن يطول مرض زوجتي. وتمنيت لها الشفاء حتى لو كان ذلك حرمانًا من أروع ما أحببت وأسعد ما أتمنى!

العفو يا ريس!

كان هناك اتفاق بين الرئيس السادات والوزير الإسرائيلي عيزرا فايتسمان على صفقة بترول بسعر معين.. ومضت الأيام وارتفع سعر البترول.. وجاء الوزير الإسرائيلي يذكر الرئيس بما وعد به، ووافق الرئيس. ولكن د. مصطفى خليل رئيس الوزراء اعترض تمامًا. وهمس في أذن الرئيس بأنه لا يوافق على الصفقة، لأن سعر البترول ارتفع وأننا سوف نخسر عشرات الملايين. ولكن السادات قال لمصطفى خليل: أنا أعطيت كلمة يا مصطفى؟

وهمس مصطفي خليل، في أذن الرئيس مرة أخرى وهو ينظر لي: سوف نخسر مبلغًا كبيرًا يا ريس. أنا أستطيع أن أجد حلاً..

ولكن الرئيس هزَّ رأسه، بأنه وعد ولن يخلف وعده. وخرج مصطفى خليل غاضبًا. وأشار لي الرئيس بما معناه: قل لمصطفى خليل أن ينتظر بعض الوقت.

ولكن الرئيس لم يعدل عن موقفه وخرج عيزرا فايتسمان مودعًا. والتفت لي الرئيس يقول: مصطفى زعلان، وأنا أعتقد أن الحق معه، أنا غلطت. وسكت وقال: الساعة كم دلوقت. قلت الساعة الواحدة والنصف سكت طويلا ثم قال: تسافر دلوقت لإسرائيل وتتناول الغداء مع

الصحفيين أصحابك وأنت جالس معهم قل إن هناك خلافًا حادًا بين الرئيس ورئيس الوزراء بشأن صفقة البترول، وإن هذا الخلاف قد يؤدي إلى استقالة مصطفى خليل. بس من دون أن تبيت الليلة في إسرائيل.

وعندما تعود اتصل بي!

حاضر يا ريس.

وذهبت إلى إسرائيل وأثناء الغداء سألوني عن بعض الأخبار فاشرت إلى الخلاف بين الرئيس ورئيس الوزراء. وعدت إلى القاهرة ووجدت الرئيس في أسوان، وقلت له. وشكرني الرئيس من دون أن يفسر لي معنى سفري والإفشاء عن الخلاف بين السادات ومصطفى خليل.

وفي الصباح الباكر اتصل بي الرئيس: صباح الخير يا أنيس.. هاها.

صباح الخير يا ريس..

كلمني عيزرا فايتسمان وسألني عن معنى سفري إلى إسرائيل وإلقاء هذه القنبلة وقال لي ما رأيك؟ قلت له: يا عيزرا أنا رجعت في كلامي فهناك اتفاق بيننا أن يظل هذا الخبر سرًا، وإذا نشرته الصحف فسوف أرجع في كلامي. وقال عيزرا فايتسمان: ولكن أنيس منصور هو الذي أذاع الخبر وليس أنا!

فقال له السادات: أنا لا أعرف لماذا فعل ذلك، أنت عارف الصحفيين ليست عندهم أسرار. أنا آسف يا عيزر! أنا آسف جدًا! وإلغاء الصفقة هو الذي ينقذ الموقف بعد أن أصبح معروفًا يا عيزرا.

ثم سكت وقال: أنا شاكر جدًا يا أنيس هاها.. هاها!

- العفو يا ريس؟!

ذهب البيروني ومعه السلطان!

في بلادنا إذا اخترت أن تكون كاتبًا فقد اخترت أن تكون ضحية. ولا يوجد قانون يحميك وعندي تجربة؛ فقد سرقني ونهبني عدد من الناشرين. وكلنا أحياء وهناك قانون يصعب تطبيقه أو يستحيل. ثم إن الكاتب ليس متفرغًا للقضايا والمحاكم وضبط الناشر اللص الذي يبيع كتبك سرًا وينشرها سرًا ويوزعها في أماكن مختلفة. حاولت. والنتيجة! إلى صفر. أنا الصفر. وهناك حيل كثيرة يلجأ إليها الناشر الحرامي. وتمضي أنت في القراءة والكتابة والنشر. والناشرون عاجزون عن حماية أنفسهم أيضًا، والقانون ميت. إذن أنت الذي اخترت أن تكون منهوبًا مسلوبًا.

إلا في البلاد الأوربية والأمريكية؛ فالكاتب يصدر كتابًا. والكتاب يطبعه الناشر بأشكال مختلفة وأحجام مختلفة وبلغات مختلفة. وفي كل الحالات يكون للمؤلف نصيب من كل ذلك.

وأذكر أن ناشرًا جاءني يطلب مني كتابًا واحدًا. قائلاً لو أعطيتني هذا الكتاب فسوف أنشئ على كتفيه دارًا للنشر. وكان أول من سرقني ولن يكون الأخير!

ونقرأ عن المؤلفين الذين عاشوا كأنهم ملوك من كتاب أو كتابين ولا أريد أن أذكر المؤلفة الإنجليزية رولنج التي ألفت كتابًا للأطفال

في سبعة أجزاء: مسلسل هاري بوتر. إنها كاتبة موهوبة رائعة. لا شك في ذلك. وتلقفتها السينما وكل اللغات.. ففي خمس سنوات كسبت ثلاثة مليارات من الجنيهات المصرية. وغيرها ليس على نفس المستوى، ولكنهم كسبوا الملايين من خمسة أو عشرة كتب. والقانون حاميهم وراعيهم في كل لغة - إلا اللغة العربية!

أذكر أنني قلت للأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا إنه من محاسن الصدف أن تصدر الترجمة العربية لإحدى رواياته. فأخرج قلمًا وورقة ليكتب اسم الناشر. ولما عرف أنه ولا فائدة من وراء الترجمة وضع القلم والورق في جيبه.. ولما جاءنا الأديب الفرنسي مارلو قال له وزير الثقافة المصري من محاسن الصدف أنه قد صدر لك اليوم كتاب «المشوار الطويل».. ونبهت الوزير إلى أننا لم نستأذن الأديب الفرنسي. لقد سرقناه!

ولما علم الأديب السويسري ديرنمات أن مسرحية «علماء الطبيعة» قد ظهرت على المسرح من ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي، سألني عن حقه في هذه المسرحية فوعدته. ثم أرسلت إليه ما يفيد بأن الدولة قد خسرت عشرات ألوف الجنيهات في عرضها - فلم يذهب لمشاهدتها إلا العشرات!

ثم إن زمن «أبو الريحان البيروني» لن يعود؛ فعندما فرغ البيروني من كتاب له عن الفلك في القرن الحادي عشر أهداه للسلطان سعود فكافأه السلطان بعدد من الإبل محملة بالفضة. فما كان من البيروني إلا أن أعادها للسلطان قائلا: إنه يخدم الحقيقة دون مقابل!

ذهب البيروني مع السلطان إلى غير رجعة.. ووقعنا في أيدي اللصوص!

.. وكان الشرط صعبًا!

في يوم كلفني الرئيس السادات بإيصال خمسين ألف جنيه إلى أحد الوزراء السابقين لمساعدته في مناسبة عائلية. وأنا لا أعرفه. ووضع السادات شرطًا صعبًا هو أن أعطي هذا المبلغ للزوجين معًا. لماذا؟ لأن هناك خلافًا بينهما.

لم يشأ السادات أن يشرح الأسباب التي تحتم هذا الشرط سألت عن الوزير قيل لي ذهب إلى النادي. سألت عنه في النادي قالوا خرج وزوجته يتناولان الغداء في أحد الفنادق. ولم أجد سببًا للسؤال عن الزوجة فأنا لا أعرفها..

وقابلت الرئيس السادات وتناولنا العشاء وتكلم السادات في كل شيء ولم يسألني ماذا فعلت.

حاولت أن أعرف أخبار الوزير من أصدقائه. ولكن لا شيء يدل على أن هناك خلافًا بين الرجل وزوجته. فلماذا يصر السادات على أن يتلقيا المبلغ معًا..

وفي يوم تشجعت وطلبت الوزير في التليفون وقلت: أنا فلان.. قال: أهلا وسهلا. قلت: سيادة الوزير هل أستطيع أن أكلم المدام فعندي لها رسالة من زوجتي. فبادرني هي خرجت.. وعندما تعود.. فقلت: متى؟ قال بعد غد؛ لأنها في المنصورة بلدكم.

وبعد أيام طلبت الوزير وكانت زوجته هي التي قالت: ليس موجودًا. أنت سألت عني؟ قلت: نعم.. قلت: متى يعود سيادة الوزير قالت: بعد ساعة.. وشكرتها. وبعد ساعة طلبته فبادرني بقوله: أنت سألت عن المدام هي موجودة. قلت: أنا عندي رسالة من زوجتي.. ثم أريد أن أستوضحك في قضية واجهتك وأنت في الوزارة. فقال: أهلا وسهلا. نحن في انتظارك.

وذهبت وشربت الشاي وأخرجت مظروف الفلوس قائلا: هذه هدية من الرئيس.

فقالا في نفس واحد : اشكر لنا الرئيس!

وفي اليوم التالي قابلت الرئيس وقلت له ما حدث.. فراح يضحك ويضحك.

فسألت الرئيس : إيه الحكاية يا ريس!

– هاها.. هاها.

– إيه الحكاية.

وقال لي حكاية طويلة ملخصها أن الزوجين اتفقا على الطلاق. فقد وعد الوزير زوجته بأن يعطيها مبلغ خمسين ألف جنيه.. ولكنه لم يف بالوعد. وتشاجرا ووقف الأمر على الطلاق. وانتظرا عودة الأبناء من الخارج. ولما أعطيتهما المبلغ اتصلا بالرئيس وشكراه. وقال لهما: إذن عيب أن يؤدي مثل هذا المبلغ إلى الطلاق.

– الله وكيف عرفت يا ريس؟

– هاها.. هاها.. تصبحوا على خير!

لا تسألني كيف حدث؟!

يسألني قارئ فاضل: كيف وكيف؟

وأرد عليه كيف حدث ذلك. هذا ما حدث، ولو كنت أعرف في تلك اللحظة أن هناك آراء وحسابات أخرى لفعلت. ولكن لقد فعلت ما فعلت من واقع الموقف وواقع الرأي والإرادة. أي هذا قراري في تلك اللحظة. وقد ثبت بعد ذلك أنني تجاوزت أو زودتها شوية، فليكن، وهذا ما حدث. وعندما اتخذت قراري. لم يكن نتيجة استفتاء شعبي. كيف تستفتي إذا وجدت نفسك في أحضان جميلة، وأشعلت فيك النار بقبلة من دون أن تعرف أن هناك من يراك ويغضبه ذلك. بالله عليك قل كيف كنت تفعل، أنت قبلْت واللي كان كان. هل كان من الأفضل كذا أو كذا. هذا ما حدث، أحسن ما يمكن أن يحدث. وليكن ما كان أو ما سوف يكون..

كيف إنني بمنتهي حسن النية بكيت على فلان وعرفت في ما بعد أنه كان يكرهني. ولكن عندما بكيت عليه لم أكن أعرف. فبكيت عليه من واقع إحساس بالموقف وصدق التعبير. ولا أعرف كيف يمكن أن أعيد الدموع إلى المآقي وكيف أحول آه إلى هاها؟! ويوم قلت صادقًا لصديقة: رأيت فيها كل ما في الدنيا من ذكاء وجمال، ولكن لا يمكن

أن نتزوج. فأنا في أول الطريق ولا قيمة لي في بلدي، ولن أتزوج قبل أن أكون شيئًا، فأنا لا أرى الزواج مؤهلا علميًا.

ولا يوم ذهبنا إلى البابا يوحنا الثالث والعشرين وهي من أقاربه ووضع يده على رأسها ورأسي ودعا لنا بالبركة.. هذه البركة لم تزحزحني عن موقفي. ولا حولت لا إلى نعم أو يجوز أو ربما.

وكان البابا صادقًا وكنت أيضًا.

ولم أر مثلها في حياتي. وحزنت ولكن كان من المستحيل أن أكون زوجًا تافهًا كل مؤهلاته أنه وجد فتاة إيطالية جميلة ذكية درست الفلسفة مثلي تمامًا واختارت من المذاهب الفلسفية ما اخترت وارتضيت.. أما كيف فعلت أو كيف لم أفعل فهذا ما حدث.. ولا توجد معجزة قادرة على تغيير الماضي وهذا جوابي يا سيدي عن كيف وكيف؟!

قد أفعل قريبًا جدًا!

خطر لي أن أجمع أهم الرسائل التي تلقيتها من القراء ومن الأدباء من مصر ومن الخارج. فلم أجد إلا عشرات. وأدهشني أن كبار الأدباء كانوا يحتفظون بها لينشروها بعد ذلك.. كما فعل الكاتب الكبير برنارد شو.. أما الفيلسوف سارتر فكانت رسائله إلى الأدباء والفلاسفة أبحاثًا طويلة احتفظ بها ونشرها. ولم ينشرها أحد غيره ولا حتى أشار إليها. ولابد أن يندهش الإنسان كيف أن فيلسوفًا عظيمًا مثل سارتر كتب كل هذه الروائع في الرواية والقصة والمسرحية والدراسات الفلسفية البديعة وفي نفس الوقت كتب هذه الرسائل الطويلة جدًا.. كيف؟!

ومنذ أيام هددتني كاتبة بأن تنشر رسائل الملكة فريدة – ومنها رسالة طويلة عنها وعني.. وهي رسالة بديعة. ولكن أرى أنه لا يليق أبدًا أن تنشر رسالة خاصة جدًا عن مشاعر خاصة جدًا. ولو كانت على قيد الحياة لرفضت نشرها. وحمدت الله أن بنات الملكة قد أحرقن بعد وفاتها كل ما كان لديها من رسائل خاصة وعامة.. رسائل من والدهم الملك فاروق ورسالتين مني!

وكان الأستاذ العقاد قد كتب عددًا من الرسائل شديدة التحفظ إلى الآنسة مي. وقد أعادتها إلى العقاد. وبعض هذه الرسائل قد نشرتها في كتابي «في صالون العقاد كانت لنا أيام».. أما رسائل مي إلى العقاد فهي أشد تحفظًا. وليست لها أية قيمة أدبية؛ لأنها كما يقول المثل الشعبي المصري: كلمة ورد غطاها!

ومما وجدته عندي رسائل طويلة إلى يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس ويوسف إدريس ولويس عوض وإلى الممثلات الإيطاليات: اليانورة روسي دراجو وسيلفانا بمبايني.. وعدد لا بأس به من الرسائل القصيرة إلى المطربة الإيطالية المصرية داليدا.. وإلى الرهبان الأب قنواتي والأب بولانجيه.. أما الذي كتبته للأستاذ توفيق الحكيم فهو يصلح أن يكون بحثًا كاملاً عن (مسرح العبث) وأنه كان من الضروري أن يولد في مصر في عهد عبد الناصر لا أن نستورده من فرنسا..

ويدهشني أنني كتبت هذه الرسائل، ولأسباب ليست واضحة عندي الآن احتفظت بها ضنًا على النسيان والإهمال، فقد كان في نيتي أن أكتب، وأن أبعث بها إليهم. وأين هم الآن؟ ولعلي أنشرها قريبًا!

يا رب لا تقبل دعاءه!

وأنا أكتب مذكراتي.. توقفت عند زيارتي للبابا العظيم يوحنا الثالث والعشرين. أما أنا فقد اعتدت على الكنائس والأديرة حتى قيل إنني مسيحي وترددت على المعابد اليهودية حتى ظنوا أنني يهودي.. وكنت دارسًا متعمقًا وما أزال..

وفي سنة 1963 ذهبت إلى الفاتيكان في مسوح الرهبان أستمع وأشاهد حدثًا خيرًا.. فالكنائس تعرض اقتراحًا: أن البابا معصوم من الخطأ.. وقد وافقوا على ذلك بالإجماع، تناقشوا ووافقوا على تبرئة اليهود من دم المسيح. فقد كانت الكنائس تلعن اليهود في كل صلاة.. وقررت الكنائس أن يهود اليوم لم يرثوا ذنب اليهود من عشرين قرنًا!

وأيامها كتبت مقالاً بعنوان: لا صلبوا المسيح ولا قتلوا كنيدي.. فقرر نادي القلم الدولى فصلي من عضويته.. وإن كنت بعد عشرين عامًا صرت رئيس نادي القلم الدولي في مصر.

ولكن قبل ذلك ذهبت إلى البابا يوحنا الثالث والعشرين مع إحدى قريباته وهي إيطالية ودارسة للفلسفة، جميلة ذكية - أجمل من رأيت. وكانت تتعجل الزواج. وكنت لا أتعجل الزواج. والسبب عندي أنني لم أصبح شيئًا مذكورًا بين قومي. أنا في مستهل حياتي لا أعرف

مصيري. والزواج يمكن تأجيله. ولكن مستقبلي وحرصي على ذلك غير قابل للتأجيل. وذهبنا إلى بابا الفاتيكان نطلب منه البركة لنا في حياتنا.. فدعا لنا.. وأنا في سري دعوت ألا يقبل دعاؤه..

هي خرجت سعيدة.. وأنا خرجت تعيسًا. وأتساءل: نفرض أن ربنا قبل دعاء بابا الفاتيكان.. نفرض لا قدر الله أن وجدت نفسي عاجزًا عن مقاومة هذا الحب الجارف لفتاة جميلة جدًا متعمقة في دراسة الفلسفة وأقرب الناس إلى قلبي وعقلي.. ولن أجد لها مثيلاً لا هنا ولا هناك.. وأنها قدري. وأن قدرها أن يكون أحد أقربائها على عرش الفاتيكان ولكن ربك رب قلوب.. والحمد لله الذي نصرني على البابا.. وهزمني أمام نفسي وأمام من أحب.. لقد عشت ساعتها منتصرًا، ومهزومًا وحتى اليوم!

وكنا نحن السبب!

إحدى قريباتي اختارت الرهبانية، فاختفت في أحد الأديرة في مدينة تارنتو وهي مدينة في أقصي الجنوب من إيطاليا. لماذا اختارت هذا المكان؟ من الذي دلها عليه؟

أما لماذا اختارت حياة الرهبانية، فلا أعرف بالضبط. ولكن أستطيع أن أجد لها مبررًا. فأمها كاثوليكية. وكانت على خلاف دائم مع والدها. ولم يكن السبب دينيًا. وإنما الرجل ذئب والزوجة الإيطالية حاولت أن تستأنسه فاستطاعت أحيانًا، وعجزت في كل الأحيان. فمرة جعلته حملاً ومرة جعلته كلبًا ومرة جعلته ذئبًا بلا أنياب ولا مخالب. ولكن لم تفلح في أن تجعله الزوج الوفي لسيدة جميلة ومثقفة ومخلصة. لقد استدرجها إلى مصر وانفرد بها.

وبسبب هذه الخلافات الشديدة انحازت الابنة إلى الأم. وكان من الطبيعي أن تلتفت إليها العيون الجائعة إلى الحب وإلى المال.. إلى مالها وجمالها. وأحبها شاب. وشاب. وأحبت شابًا. ولكن أمها اعترضت ووالدها وافق. ولم تستطع أن تحب غيره. وأبعدوه عنها بالتهديد والوعيد. وابتعد..

ولم تفطن البنت إلى سلوكيات أمها أيضًا. فلا كانت الزوجة الوفية. وسألتني. وقلت. وناقشتني وحاولت أن أقنعها، ثم وافقتها. واختفت.

وعن طريق صلتي القوية بكثير من أديرة الكاثوليك الفرانسيسكان في مصر، عرفت مكانها، وسافرت إليها. أحمل الكثير مما كانت تحب.

ونسيت شيئًا مهمًا: اسمها الجديد.. فلا بد أن يكونوا قد غيروا اسمها. وسافرت ثلاثين ساعة بالقطار. والمدينة حارة جدًا مثل أسوان ورطبة مثل الإسكندرية. وأسعدني الحظ عندما عرفت إحدى خادمات الدير. وبعثت برسالة إليها. وجاءت حانية الرأس مضمومة اليدين خفيضة الطرف وفي نظرة واحدة طويلة من عينيها عرفت السبب. وأحزنني ذلك، فقد كنا نحن السبب من أربعين عامًا!

رسائل القراء.. قبلات وصفعات وركلات!

أنا أقرأ رسائل القراء إلى كل كتاب «الشرق الأوسط». فما أصعب أن تكتب وما أصعب أن ترضي كل الناس، فالمقال الواحد يختلف المعلقون عليه ما بين واحد يدعو له بطول العمر وواحد يندهش كيف طال بك العمر ويتعجل نهايتك حتى يستريح من الكلام الفارغ الذي يصر الكاتب عليه.. مع أن العلاج سهل جدًا: ألا يقرأ لهذا الكاتب..

وبعض الرسائل تعلق على أشياء لم تخطر على بال الكاتب. وأن يفسر ما جاء في المقال تفسيرًا شخصيًا بحتًا. وبعض القراء يتساءلون: ولكن ما معنى هذا المقال؟ ما الحكمة؟ ويجدون أنه لا معنى ولا حكمة! إذًا لماذا يكتب الكاتب. لماذا لا يضع قلمه في حلقه ويموت. وبعض القراء في غاية الكرم. يسرفون في المديح ويطلبون من الله أن يهب كاتبهم الصحة والعافية لكي يمتعهم ويسعدهم. وبعض القراء يجدون كاتبهم مملاً سخيفًا. ثم إنه قد قال كلامًا قرأه له أو لغيره. يعني أن هذا الكاتب مفلس. ولا أحد يرده عن الكتابة. ولا هو يختشي ويضع في عينه حصوة ملح ويبلع لسانه وقلمه ويسكت!

قرأت مقالاً لكاتب كبير في «الشرق الأوسط». وأعجبني المقال. وانتظرت اليوم التالي حتى أقرأ التعليق عليه. وقرأت. والله منتهى

الظلم. فليس صحيحًا أن المقال تافه، وأن المعاني مكررة وليس صحيحًا أن الكاتب لو عاد إلى مقاله لمسح به الأرض ومزقه قبل أن يقرأه الناس. ظلم! وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند - كما قال الشاعر القديم..

ولكن ما يعزي الكاتب من قسوة الأحكام عليه رقة الكلمات وباقات الورد من قراء آخرين. فما أصعب أن تكون كاتبًا وأصعب أن تكون قارئًا وأصعب أن ترضي الجميع!

لا قتل للحيوانات بعد عشر سنوات!

ملايين الحيوانات في المعامل تموت فداء للإنسان، فالعلماء يجربون الأدوية والحقن والأشعة على حيوانات المعامل: فئران وقطط وكلاب وقرود. ويموت منها سنويًا مئات الألوف. وترى كثير من الجمعيات صديقة الحيوانات أن هذه وحشية من الإنسان، وأن العلماء يسرفون في قتل هذه الحيوانات البريئة.. وأنه لابد من وضع نهاية لهذا العذاب اليومي للحيوان. وللإنسان الذي يحب الحيوان. وفي بريطانيا أصدروا تجريمًا بقتل هذه الحيوانات. وبعد عشر سنوات لن يموت حيوان في معمل؛ ولذلك يحاول العلماء أن يجدوا طرقًا أخرى. ووجدوا. من بين هذه الوسائل أن يلجأوا للإنسان نفسه. وخصوصًا في تجاربهم في تجميل بشرة الإنسان. فوجدوا أن الحل هو اختيار طبقة من خلايا الوجه ويعتنون بتربيتها وتكبيرها وإجراء التجارب عليها.. وأحدث هذه التجارب أن أتوا بخلايا بشرية ووضعوها في الماء مع مادة الكولاجن ولاحظوا أن الخلايا تبدأ في النمو إذا أضافوا لها السكر والأحماض الأمينية. وبعد ثلاثة أيام تتعرض للهواء لتواصل النمو وتتكون فيها طبقة خشنة تشبه طبقة البشرة. وبعد عشرة أيام يعرضونها للأشعة فوق البنفسجية، وتكون الخلايا قد بلغت سمكًا يصل إلى مليمتر ونصف. وفي هذه الحالة

تكون كافية جدًا لإجراء تجارب التجميل عليها. وقد أعلنت إحدى شركات التجميل الكبرى أن هذا الاكتشاف يعتبر إعجازًا. وأنه قد وهب ملايين الحيوانات حياتها. وفي نفس الوقت سوف يكون مصدرًا لسعادة ملايين النساء؛ لأن التجارب التي أجريت على هذه الخلايا البشرية التي تم تجهيزها في المعامل كانت نتائجها أوضح وأقوى.. وتم ذلك في وقت قصير جدًا.

وقال أحد الخبراء أيضًا: إن مشكلة الحيوانات التي ماتت بالملايين في كل الدنيا من أجل سعادة الإنسان قد انتهت أو أوشكت على الانتهاء، ولن تبقى إلا مشكلة المرأة نفسها، فهي تسرف في تعاطي مواد التجميل ظنًا منها أنه كلما كانت الكريمات كثيفة على بشرتها، كان علاجها أسرع. غلط! فالمرأة في حاجة إلى من يدربها على الرفق ببشرتها الرقيقة، وعلى أن تمضي وقتًا أطول.. وإذا أهملت فإنها سوف تسيء إلى بشرتها.. ملايين يفعلن ذلك. وقد يؤدي في النهاية إلى العودة إلى الحيوانات ما دام الإنسان غير قادر على أن يحمي نفسه، فلتكن الحيوانات مرة أخرى!

كل الأطباء لكل الأمراض!

لي أصدقاء في كل التخصصات الطبية. وهي ليست صدفة. فأنا الذي اخترت وقررت. فإذا اختفى طبيب بحثت عن واحد في مكانه. والسبب أنني موسوس. ولأنني أجهل كيف يعمل جسمي وكيف تفرز غدده ذات القنوات وغدده الصماء، فإذا توهمت شيئًا اتصلت بالطبيب أو ذهبت إليه. وهذه من الصفات التي ورثتها عن والدتي يرحمها الله. ماتت والدتي وعاشت هذه الأوهام أو هذه المخاوف ولم أفلح بكل ما قرأت وتعلمت أن أتخلص منها. وفي مقدمة المخاوف التي لا علاج لها أمس ولا اليوم ولا غدًا: الخوف من البرد والزكام والسعال والالتهاب الرئوي.. وبعض الناس كان يتصور أنني أخذتها عن الموسيقار محمد عبدالوهاب. بل إنني وجدت عبدالوهاب في بعض مخاوفه معتدلاً.

ولا أنسى يوم ذهبت إلى الرئيس السادات فقيل لي الرئيس ينتظرك في غرفة النوم. وذهبت ووجدته في الفراش يسعل ويعطس.. وفي سري قلت: يا نهار أسود إنني مزكوم لا محالة. وبادرت الرئيس قائلاً: سلامتك يا ريس. أجيء لك غدًا إن شاء الله!

ولكنه قال: يا أخي اقفل الباب وتعال.. أصل الإنفلونزا بهدلتني.. اقعد!

وقعدت أرتجف. ولا أدعي أنني استوعبت تمامًا ما قاله الرئيس.. واستأذنت وخرجت.. ودخلت أقرب صيدلية: حقنة وحبوب وأقراص.. وعدت إلى البيت أتغطى باللحاف وأضع الجورب في قدمي ودماغي في الطاقية. وانتظرت. ومن الغريب أن شيئًا من ذلك لم يحدث.

وتشاء الصدفة أن أزور السيدة أم كلثوم لأمر عاجل يتعلق بإحدى حفلاتها. كانت هناك مشكلة. وقلت لابد أن أراها ولو دقيقة واحدة. وكانت مزكومة على الآخر.. يا نهار أسود.. ودقيقة واحدة تكفي لأن أعطس وأسعل.. وما دام الزكام قد انتقل من أم كلثوم فسوف يكون طويلاً كحفلاتها.. والعجيب حقًا أن الزكام لم ينتقل برغم أنني حاولت أن أعجل به كأن أتعرض للهواء ولكي أعطس وأتعاطى الأدوية. شيء عجيب!

سألت الطبيب قال: يا أخي انت عاوز تعطس ليه.. عندك مقاومة. وانت لماذا ضد نفسك.. احمد ربنا!

وحمدت الله ولكن بحثت عن طبيب آخر يطاوعني!

نحن كتبنا ولكنه هو الذي قال!

خطاب الرئيس السادات أمام الكنيست أصبح شرفًا يدعيه كثيرون. ولكننا في مصر نعرف من الذي كتب، ومن الذي أعاد الصياغة. والرئيس السادات هو الذي حذف وطلب تقديم فقرة على فقرة.

أما الذين كتبوه فكنا ثلاثة: موسى صبري وبطرس غالي وأنا. أما الذي كتبه بطرس غالى فقد استبعده الرئيس تمامًا. لا لأنه ليس مناسبًا ولكن لأنه ليس خطابيًّا.. أي ليست فيه عبارات طنانة رنانة أو تعبيرات بليغة واعترف بطرس غالي بذلك.. بقي ما كتبناه موسى صبري وأنا.. فهو كتب جانبًا وكتبت أيضًا.

وحذف السادات عبارة من هنا ومعنى من هناك. وفي يوم إلقاء الخطاب استدعاني الرئيس السادات وطلب مني أن أجلس أمامه، وأن أعيد صياغة صفحات من هذا الخطاب في البداية والنهاية. وكان له ما أراد.

ومما أضحكني وأضحك الرئيس وأبكى موسى صبري، أن كاتبًا سياسيًّا معروفًا ادعى أنه هو الذي كتب الصفحات التي كتبها موسى

صبري. قال لي الكاتب السياسي المصري: أنت عارف أنا الذي كتبت وأنا الذي أضاف وحذف. وأنا الذي اقترحت استبعاد كل ما كتبه بطرس غالي..

ولم أكن أعرف كل ذلك؛ لأنه لم يحدث. وقال ثان وثالث ورابع إنهم شاركوا وكتبوا وسهروا وتعبوا.

وقد سئلت أخيرًا. وكان جوابي أن الرئيس ما دام قد قال، فالكلام له والخطاب خطابه وهو وحده المسئول ولا يجرؤ أحد أن يقول شيئًا، ونحن نقول أم كلثوم قالت وعبدالحليم قال، مع أنها لا كتبت ولا لحنت. ولكن ما دامت قد غنت فهي التي قالت، فقد اختارت الكلام وأعجبها وعدلت فيه.. ثم غنت واستمتعت الملايين فهي التي قالت.. وكذلك هو الذي قال!

الفهرس

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستاذ

أنيس منصور

(أ) ترجمة ذاتية:

1 - في صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
2 - عاشوا في حياتي.
3 - إلا قليلا.
4 - طلع البدر علينا.
5 - البقية في حياتي.
6 - نحن أولاد الغجر.
7 - من نفسي.
8 - حتى أنت يا أنا.
9 - أضواء وضوضاء.
10- كل شيء نسبي
11- لأول مرة.
12- شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

13- الحائط والدموع.
14- وجع في قلب إسرائيل.
15- الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل).
16- عبد الناصر - المفترى عليه والمفتري علينا.
17- في السياسة (3 أجزاء).
18- الدين والديناميت.
19- لا حرب في أكتوبر ولا سلام.
20- السيدة الأولى.
21- التاريخ أنياب وأظافر.
22- الخالدون مائة - أعظمهم محمد (ﷺ).
23- على رقاب العباد.
24- ديانات أخرى.
25- وكانت الصحة هي الثمن.
26- الغرباء.
27- الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

28- عزيزي فلان.
29- هي وغيرها.
30- بقايا كل شيء.
31- يا من كنت حبيبي
32- قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

.. للأديب السويسري فريدريش ديرنمات:
33- رومولوس العظيم.
34- زيارة السيدة العجوز.
35- زواج السيد مسيسبي.
36- الشهاب.
37- هي وعشاقها.
.. للأديب السويسري ماكس فريش:
38- أمير الأراضي البور.
39- مشعلو النيران.
.. للأديب الفرنسي جان جيرودو:
40- من أجل سواد عينيها.
.. للأديب الأمريكي آرثر ميللر
41- بعد السقوط.
.. للأديب الأمريكي تنسي وليامز:
42- فوق الكهف.
.. للأديب الأمريكي يوجين أونيل
43- الإمبراطور جونس.
.. للأديب الفرنسي يوجين ليونسكو:
44- تعب كلها الحياة.
.. للأديب الفرنسي أداموف:
45- الباب والشباك.
.. للأديب الإسباني أرابال
46- ملح على جرح

(هـ) دراسات نفسية:

47- الحنان أقوى.
48- من أول نظرة.
49- طريق العذاب.
50- ألوان من الحب.
51- شباب.. شباب.
52- مذكرات شاب غاضب.
53- مذكرات شابة غاضبة.
54- جسمك لا يكذب.
55- الذين هاجروا
56- غرباء في كل عصر.
57- أظافرها الطويلة.
58- هموم هذا الزمان.

59- زمن الهموم الكبيرة.
60- الحب الذى بيننا.
61- عذاب كل يوم.
62- كيمياء الفضيحة.
63- كل معاني الحب.

(و) دراسات علمية:

64- الذين هبطوا من السماء.
65- الذين عادوا إلى السماء.
66- القوى الخفية.
67- أرواح وأشباح.
68- لعنة الفراعنة.
69- دقات الصحة هي الثمن

(ز) نقد أدبي:

70- يسقط الحائط الرابع.
71- وداعًا أيها الملل.
72- كرسي على الشمال.
73- ساعات بلا عقارب.
74- مع الآخرين.
75- شيء من الفكر.
76- لو كنت أيوب.
77- يعيش.. يعيش.
78- الوجودية.
79- طريق العذاب.
80- وحدي . مع الآخرين.
81- ما لا تعلمون.
82- لحظات مسروقة.
83- كتاب عن كتب.
84- أنتم الناس أيها الشعراء.
85- أيها الموت.. لحظة من فضلك.
86- أوراق على شجر.
87- في تلك السنة.
88- دراسات في الأدب الأمريكي.
89- دراسات في الأدب الألماني.
90- دراسات في الأدب الإيطالي
91- فلاسفة وجوديون.
92- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

93- حول العالم في 200 يوم.
94- بلاد الله خلق الله
95- غريب في بلاد غريبة.
96- اليمن ذلك المجهول
97- أنت في اليابان وبلاد أخرى.
98- أطيب تحياتي من موسكو.
99- أعجب الرحلات في التاريخ.
100- ماذا يريد الشباب؟
101- الرصاص لا يقتل العصافير.

(ط) مسرحيات كوميدية:

102- مدرسة الحب.
103- حلمك يا شيخ علام.
104- مين قتل مين؟
105- جمعية كل واشكر.
106- الأحياء المجاورة.
107- سلطان زمانه.
108- العبقري.
109- كلام لك يا جارة.
110- فوق الركبة.
111- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
112- يوم بيوم
113- إنها الأشياء الصغيرة.
114- إلا فاطمة.
115- القلب أبدًا يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

116- حقنة بينج.
117- اتنين.. اتنين.
118- عريس فاطمة.
119- من الذي لا يحب فاطمة؟
120- غاضبون وغاضبات
121- هي وغيرها.
122- هي وعشاقها.
123- العبقري.
124- القلب أبدًا يدق
125- يعود الماضي يعود.

(ك) كتب (مقالات):

126- ثم ضاع الطريق.
127- النجوم تولد وتموت.
128- هناك أمل.
129- أحب وأكره.
130- الحيوانات ألطف كثيرًا.
131- مصباح لكل إنسان.
132- أتمنى لك.
133- لعل الموت ينسانا.
134- اقرأ أي شيء.
135- ولكني أتأمل.
136- حتى تعرف نفسك.
137- الحب والفلوس والموت.. وأنا.

138 – نحن كذلك !!
139 – اللهم إني سائح.
140 – كائنات فوق.
141 – تعال نفكر معًا.
142 – آه لو رأيت !
143 – النار على الحدود: لعبة كل العصور.
144 – انتهى زمن الفرص الضائعة !
145 – هناك فرق.
146 – الرئيس قال لي.. وقلت أيضًا – الجزءان الأول والثاني.
147 – يا نور النبي.
148 – وأنت ما رأيك؟
149 – حضارة الأوز والبقر.
150 – حلمنا الجميل.
151 – ضاع الجيل ضاع.
152 – قالوا (الجزءان الأول والثاني).
153 – وآخرتها.
154 – من أول السطر.
155 – أظافرها الطويلة.
156 – القلب لا يمتلئ بالذهب.
157 – تكلم حتى أراك.
158 – الذي خرج ولم يعد.
159 – ليلة في بطن الحوت.
160 – والله زمان يا حب.
161 – أجيال من بعدنا.
162 – قلبك يوجعني.

(ل) الترجمات القصصية:

163 – رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكي أرفنج والاس.
164 – (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.
165 – (لو كنت مكاني) للأديب السويسري ماكس فريش.
166 – (قصص مورافيا) للأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا.
167 – (الجلد) للأديب الإيطالي كورتسيو ملبارته.
168 – (الجهل الصاخب) للأديب الأمريكي جهنز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

169 – الفلسفة الوجودية الألمانية - لإميل تسلر.
170 – الفلسفة الوجودية الفرنسية – لجان جاك رسو.
171 – معنى العدم عند هيدجر وسارتر – لجانهت أردمان.
172 – مسرح العبث الفرنسي – لإتيان ماريبو.
173 – الفيلسوف الروسي بردياتف – لفيكتور لوزتسيف.
174 – من كيركجور إلى مارسيل – لأنطوان بابيف.
175 – سيمون دبوفوار تلميذة رصينة – لفرنسواز روسلان.
176 – رسائلها إليه – لفرنسواز روسلان.
177 – فاشلون لكن نبلاء – لجان ماري روار.
178 – ما الميتافيزيقا؟ – لمارتن هيدجر.
179 – الوجودية فلسفة إنسانية – لجان بول سارتر.
180 – فلسفة حنا أرنت – تلميذة للفيلسوف الألماني مارتن هيدجر – لأدم برجشتاين.
181 – كروتشه فيلسوف الحرية – لإبراهيلا دلورنتس.



قلبك يوجعني

لي كتاب ترجم إلى الإيطالية عنوانه «قلبك يوجعني» وهو مجموعة رسائل إلى الصديقة سينا روصنم وكان من الممكن أن يبقى بالعربية فهي تعرف العربية وتجيدها ولكنها شاءت أن تجرب حظها في زحام الأدب المعاصر وأن يكون تحت عنوان «رومانسية عربية» قلت لها: عندي إحساس أنني لم أكمل عبارة واحدة قلتها حتى لو كررتها ألف مرة فما يزال هناك ما أقوله فالكلام بيننا ليس نهائيًا وليس الذي نقوله بديهيات وإنما نحن اخترنا الظنون والأوهام والأحلام واخترنا ألوان الشفق وألوان الغسق ولم نكتب نهارًا ولم ننسج عباراتنا من خيوط الشمس فليس الذي نقوله كلامًا بالعقل والمنطق فلا أنت أرسطو ولا أنا كارل ماركس ولكن أنت الشاعر بتراركه وأنا الشاعر لرمنتوف لقد كنت أدعو الناس أن ينظروا إلى وجوههم في المرآة أو إلى شهادة ميلادهم لكي يعرفوا أنهم كبروا وأن كلامهم صغير فالفنان له عمران عمر شهادة الميلاد وعمر القلب الذي لا يكبر ولا يشيخ.

إنني أكتب وعليكِ أن تختاري لي عمرًا أما أنا فأعرف عمري ولكن لا أعرف لك عمرًا ولا أريد..

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع